فرناندو أرّابال

رسالة
إلى الجنرال فرانكو

ترجمها عن الاسبانية
عمار الأتاسي

Twitter: @alqareah
1.5.2016

LITERATURA PROHIBIDA

فرناندو أرّابال

رسالة إلى الجنرال فرانكو

رواية

Twitter: @alqareah

رسالة إلى الجنرال فرانكو

Twitter: @alqareah

رسالة إلى الجنرال فرانكو

تأليف : فرناندو أرّابال

ترجمة : عمار الأتاسي

تصميم الغلاف : باسم صباغ

الإخراج الفني : دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى : 2014

التوزيع في سورية:

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

دمشق ـ ص. ب: /9838/

هاتف / فاكس: 6133856/ 11 00963

جوال: 944/266681 00963

البريد الإلكتروني : elhamadwan@gmail. com

addar@mamdouhadwan. net

جميع الحقوق محفوظة لدار ممدوح عدوان

لا يجوز نقل أو اقتباس أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب

بأي وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الدار

Twitter: @alqareah

مقدمة المترجم

يدفعنا التاريخ إلى تساؤلات حول مجرياته، نجيب عنها أحياناً، ومرات عديدة يبقى الالتباس سجين النفوس والصدفة، حتى تأتي الصحوة لتصيب ضمائرنا من خلال أحد تلك الإبداعات الصادقة التي تنعش الذاكرة، كهذه الرسالة التي وجهها فرناندو أرّابال عام 1971 إلى الجنرال فرانسيسكو فرانكو (رئيس إسبانيا 1939-1975) ليناوشه فيها عن الحرب الأهلية الإسبانية العظيمة ـ كما وصفها بعض الإسبان ـ ثم عن النظام الذي فرضه الجنرال بعد الحرب. هي صرخة من أجل الحرية وشهادة عفوية من داخل سياج كبّل إسبانيا في أتون الحرب والاضطراب والديكتاتورية.

Twitter: @alqareah

نشرت الرسالة دون انقطاع في فرنسا وإسبانيا والأرجنتين في إصدارات عديدة كان آخرها التي صدرت عام 2011.

التهكم الصادق, الألم والحرقة على وطن ضائع, المنفى الخالد بالإضافة إلى حياة الكاتب فرناندو أرّابال المليئة بالنتاجات الإبداعية في المسرح والسينما والأدب والشعر والشطرنج وغيرها. . كل هذا يجعل من هذا الكتاب رحلة للتعرف ـ ربما ـ على أحوال إسبانيا في عصر الحداد الكالح.

Twitter: @alqareah

مقدمة النسخة

لا، لا أريد أن أكون كبش الفداء، كما كان والدي.

ومن أنا لأحكم؟... كما يقول لي البعض، من أنا لأسامح؟... .

لست جديراً بالغفران. وفي الواقع: لست جديراً بشيء.

أنا أطلب الشفقة ـ لي على وجه الخصوص ـ أو بالأحرى: أطلب النسيان، ألّا أتذكّر، في النهاية، مشاهد عام 1936 والتي سممّت حياتي.

Twitter: @alqareah

سأكون سعيداً يوم أقلع عن الكتابة، ويتوقّف شريط ذكرياتي عن عرض الصور البسيطة للمآسي، مآسي الحرب الأهلية.

سأحاول "سعيداً" أن أعثر على حلّ لإحدى (الأحجيات الرياضية السبع) سأتنفّس أخيراً، راضياً، هواءً بلا تلوّث في متاهتي. سأتنفّس كحديثي الولادة، لأولد من جديد، كمن يستثمر حدث الحياة ليجد التوازن.

أعتقد أحياناً، أن النظام القديم، كمرض السّل الذي سمّم رئتيّ ليخنقني.

لا أعتقد أن ثمة حياةً يمكن مقارنتها بحياة والدي، أو "ناديجا"[1]، فكلاهما اختفيا في شتاء (1940-1941) عندما كانا في الثامنة والثلاثين من العمر. كلاهما أمضيا أيامهما الأخيرة محبوسين في مشفى المجانين، وفقط قبل النهاية بقليل، كانا مقيدي الأيدي طوال الأربع وعشرين ساعةً الأخيرة بقيودٍ قويةٍ ورطبة. في ذلك الشتاء القارس كانت "ليل البيتينيسية"[2] وبروغوس

---

1) شخصية في رواية سريالية لأندريه برتون.

2) ليل: مدينة في فرنسا، بيتينيسية: نسبةً لبيتين جنرال فرنسي كان يحكم فرنسا 1940-1944.

Twitter: @alqareah

الفرانكوية مغطاتين بالثلوج، ولم تتوفّر التدفئة في أيٍّ من المشفيين. أفلم يكن السجن خيراً لهما؟..

لقد تراءى "نادجا" للسرياليين، ليعلّمهم ما هو أساسيّ، ولأن أحداً لم يعلّمه لهم: علاقة الشعر بالحياة والنرد، وهذا ما نقله إليَّ أبي من خلال غيابه.

مع أنني لا أحمل في ذاكرتي أية صورةٍ له ماعدا صورة يديه وهما تطمران قدميَّ برمال شواطئ "مليلية"[3]، حين لم أكن أبلغ الرابعة من عمري. لذلك فإن "نادجا" ووالدي يمكن اعتبارهما أرواحاً متجوّلة، أو ككبشي فداء ببساطة.

ودون الحاجة إلى مقارنة ما لا يمكن مقارنته، أذكر جيداً كيف كان والدي محبوساً من قبل أصدقائه في ثكنةٍ في مليليه وكيف بعد ذلك بيوم وفي 17 تموز 1936 اندلعت الحرب الأهلية رسمياً، حينها نقلوه إلى زنزانةٍ ليفكّر ويقرر، وأعلموه بأنه سيتمّ إعدامه بتهمة التمرّد العسكري إن لم يعلن ولاءه (للانقلاب). بعدها بساعةٍ واحدة نادى الملازم الشاب (فراناندو أرّابال) زملاءه ليقول

---

3) مدينة اسبانية في شمال المغرب.

Twitter: @alqareah

لهم أن الأمر قد حُسِم وأنه لا يحتاج إلى مزيدٍ من التفكير.

حاولت تقليده مراراً، ولكني كنت أنا الشاهد والمثال، وكنت رمزا من العيار الثّقيل.

أنا لست سوى منفيٌّ مشوّش خارج أرضي، بعيدٍ عمّا أحب وأرغب.

لذا فلا لن أكون كبش الفداء، كوالدي.

أنا فقط أريد الحياة، إلى حين ترغب آلهة الخبز.

فرناندو أرّبال

سان باولو، البرازيل 2009/8/11

Twitter: @alqareah

باريس 18/آذار/1971
السيد فرانسيسكو فرانكو:
قصر البرادو- إسبانيا

فخامة الرئيس:

أكتب إليك هذه الرسالة مع الحب، دون أدنى درجات الكره أو الحقد، رغم أنه عليّ القول أنك الرجل الذي تسبب لي بالأذى كما لم يفعل أحدٌ قط.

أخاف أن أشرع بالكتابة إليك، وأخشى أن تكون رسالتي المتواضعة هشّةً فلا تصل إلى حضرتك ولا تقع بين يديك.

أعتقد أنك معذّبٌ بلا حدود، إذ أن الإنسان المقهور فقط من يستطيع فرض القهر حوله.

الألم يتملكك، ليس كرجلٍ سياسيٍ وعسكريٍ فحسب، بل وفي انحرافك أيضاً: أنت ترسم حطام السّفن،

Twitter: @alqareah

ولعبتك المفضّلة هي قتل الأرانب والحمام وسمك التّونة.

كم من جثّةٍ في سجلّك؟.. في "أستوريا"(4) وأفريقيا وفي الحرب الأهلية ومابعدها؟!..

حياتك متّشحةٌ بالحداد. أتخيّلك محاطاً بحمام بلا أرجل، بأكائيل سوداء، بأحلام تطحن الدم والموت.

أتمنى أن تتحوّل، تتغيّر، أن تنقذ نفسك. أن تكون بالأحرى سعيداً في النهاية، أن تهجر عالم القمع والضغينة، وتقلع عن السّجن وعمّن حولك من أشرارٍ وأخيار.

ربما هناك أملٌ ضئيلٌ بأن تسمعني. عندما كنت صغيراً اصطحبوني إلى حدثٍ رسميٍّ كنت تترأسه، وصلت يومها بين التصفيقات والهتافات وخرجت فتاةٌ صغيرةٌ طيّعةٌ لتقدّم لك الزهور، ثم بدأت بإلقاء قصيدةٍ كانت قد تدرّبت عليها ألف مرّة، وفجأةً أجهشت الفتاة بالبكاء، فداعبت وجنتها وقلت لها: لا تبكِ يا صغيرتي فأنا رجلٌ ككلّ الرّجال.

---

4) مقاطعة في اسبانيا.

Twitter: @alqareah

فهل يعقل أن هناك ما يثير السّخرية أكثر من كلماتك؟..

أنا لا أنتمي إلى فيلق الإسبان الذين عبروا بعد الحرب جبال "البيرينيه" المغطاة بالثلوج، كصديقي إنريكي الذي بلغ آنذاك أحد عشر شهراً.

بطونٌ جافّةٌ تبحث بلا كللٍ عن طفراتٍ ترفعهم فوق، هرباً من قاع الذّعر، بطولاتٌ ضائعةٌ وأمهاتٌ واقفات يحملن أولادهن...

مرّت السنين ورحلوا. كم منهم هرب؟.. وكم هجِّر؟..

***

منذ قرون وفي عهد التّعسّف الكنسيّ عاشت فتاة في مدينة آفيلا كانت في الثّامنة من العمر عندما أخذت أخاها الصّغير من يده وهربت من المنزل، تعبر حقولاً وجبالاً معه.

Twitter: @alqareah

وعندما قابلها أبوها ذات يوم سألها لماذا هربت؟..

قالت: كنت أريد الرحيل عن إسبانيا.

وحين سألها عن السبب، قالت: لأبلغ المجد!..

نفسها تلك الكلمات التي قالتها هذه الفتاة "سانتا تيريزا" كان يمكن أن يقولها مئات الألوف ممن رحلوا أيضاً، عائلات "غويا، بيكاسو، بونويل".

نحن من رحل في عام 1955 من إسبانيا السّوداء أيضاً كان يمكن لنا القول: كنا نريد بلوغ المجد بكل ما تحمله الكلمة من سحر، هذه الفتاة التي هربت باحثةً عن الألوهة كانت ستلقى العذاب في لحمها وروحها من صفعات التّعصب في زمن (التّعسّف الدينيّ).

لا يظنن الرئيس بأنني فخورٌ أبداً، فأنا لست فوق أحد، وخصوصاً أنت. نحن جميعاً سواسية.

ينبغي أن تسمع هذا الصّوت الذي يفيض بالعاطفة والذي يطير فوق أوروبا ليصل إليك.

إن كلماتي في هذه الرسالة كانت لتأتيك من أغلبية الإسبان لو لم تكن أفواههم مقفلة.

هذا ما يتداوله الشعراء في الخفاء لكنّهم لا

Twitter: @alqareah

يفصحون عمّا تصرخ به قلوبهم.

يجازفون بالسجن ومن أجل هذا رحل الكثيرون .

***

نظامك هو حلقة خاصةٌ من مسلسل التّعصب الذي بدأ في إسبانيا منذ قرون.

أتمنّى أن تدرك الوضع وتنزع الأصفاد التي تحبس معظم الإسبان. فهدف رسالتي: أن تتغيّر، أن تستحق النجاة ككلّ الرّجال من ستالين إلى غاندي، أن تستحق السّعادة.

كيف لك السّعادة وأنت تعرف مدى الإرهاب الذي فرضه ويفرضه نظام حكمك، لابد أنّك تعاني لتنشر العقاب حولك، ولهذا أنقذ نفسك وكن سعيداً فإنه لابد لإسبانيا في النهاية أن تحبس السّم عن شعبها.

كم من رمادٍ وكم من دموع، وكم من موتٍ بطيء في جنازات الخردة على وقع الأجراس المتعفّنة.

Twitter: @alqareah

قرونٌ مرّت على بلدٍ كان الفلاسفة العرب فيه يبنون فكراً أصيلاً وعلى بعد شوارع قليلةٍ منهم شيّد اليهود صرح " الكابالا"[5] وأتى المسيحيون في الوقت نفسه برائعة الإنجيل المترجم وهذا البلد كان إسبانيا.

كان يُطلق على ملوكهم أسماءً مثل ألفونسو العاشر (الحكيم)، أو فرناندو الثالث (المقدّس) ونصّب كلٌّ منهم ملكاً على الأديان الثلاثة. أشعر بالفخر ربما لأنني أحمل اسمه!..

تخيّل حضرتك أن إسبانيا اليوم تستوعب الأنماط الثلاثة السّائدة من التفكير وترعاهم بكل حريّة. (الديمقراطية، الشيوعية، التّديّن).

إذا أنت سيدي الرئيس انتدبت سلطتك للشّعب، فيا للسعادة، ياللسعادة لك أولاً ويا للسّعادة لكلّ الإسبان.

لكنّ ذاك التّسامح البنّاء الذي تشرّبته العصور الوسطى كان مصيره الزوال بوحشية.

أتى ملوك الكاثوليك وطردوا اثنين من الأديان الثلاث، فرضوا اعتناق المسيحية بالدم والنار لإفناء

---

5) مدرسة يهودية شيّدت بين فرنسا وشمال إسبانيا.

Twitter: @alqareah

اليهود والمسلمين.

بدأت الليلة الأكثر سواداً في تاريخ إسبانيا، اشتعلت محارق الاستبداد ولم ينطفئ تعصّبهم اليساريُّ وعمّ صمتٌ من زهورٍ متكلّسةٍ، من قضبانٍ لا نهائيةٍ وكأنها سرب من العناكب في أدمغتنا.

ومازال الناس في إسبانيا يتعفّنون في الزّنازين لأنهم أبدوا رأياً، وبسبب البوح بمثاليةٍ تحرق قلوبهم رغبةً صادقةً بنظام مختلف.

***

عندما يتكلّم أحدٌ عن هذه الحقائق الموجعة والتي تسبب لي الألم في الرّوح يسارع جهازك الصّحفيّ لاعتبارها أساطير السّواد.

شكراً على التّوصيف... حُلّت المشكلة!..

لقد أخفيتم في إسبانيا جبالاً من البراز بمروحة يدٍ صغيرة.

Twitter: @alqareah

كما أخفت الملكة خوانا (مجنونة الحب) جثة زوجها المتفسّخة (فيليب الجميل)..

على تروسهم، علّق ملوك الكاثوليك النير والرماح . وبعد قرون جاء الحزب الواحد الذي دعمك ليحمل التّرس ذاته، نيرٌ ورماحٌ متّحدين هذه المرّة (ترس الكتائب)[٥].

وهذا ما جعلني أفكّر ما إذا كان التّاريخ يرسل الإشارات لنفهمه أكثر أو إذا ما كانت النير والرماح مجرّد قوسين سجنا إسبانيا في ليلها اللاهوتيّ.

ربما، هي النهاية الآن.

ربما تبدأ النّهضة.

***

دعني أرو لك سيرة أحدهم: هو رجلٌ لم يعرف إسبانيا إلّا في ظلّ حكمك و(هناك الآلاف منهم)، خذ على سبيل المثال أصدقائي الأربعة الذين أسست معهم "

---

٥) حزب فرانكو.

Twitter: @alqareah

أكاديميا".

هي أكاديميةٌ أعطتنا ونحن في العشرين من عمرنا في مدريد الخمسينيات إحساساً مبجّلاً بالحياة.

مع هؤلاء الأصدقاء كنت أذهب إلى ضريح "بيلاثكيث" نصف المهجور ونضع عليه أوراق الغار.

معهم كنت ألتقي لقراءة قصائد لوركا وميغيل إرنانديز، ومعهم خضت نقاشاتٍ حتى الفجر عن كيف يمكن للبلد أن تصل إلى العدل والمساواة، والأربعة هم:

"خوسيه لويس" الذي خرج من الحرب الأهلية يتيماً، سقط والداه ضحيتين لجيش معاليك.

والد وجدّ "إدواردو" حُكِما بالسجن المؤبّد ثمّ أُعدِما رمياً ببنادق رجالك.

وأسِر والد "لويس" الذي كان ضابطاً في جيش الجمهوريين بعد سقوط مدريد وعلى الرّغم من كل الوعود، التي أُعطيت لزعيم الجمهوريين، حُكم بالسجن المؤبّد وقُتل.

والد "خوسيه" ووالدا زوجته بعد أن ذاقوا المرّ في السّجون والأعمال الشّاقة، استطاعوا النجاة.

Twitter: @alqareah

وأما في عائلتي فنظامك ومن خلفه كانوا مسؤولين عن إدانة والدي واختفائه لاحقاً في ظروفٍ غامضة، وتنفيذ الإعدام بحقّ أخيه في " مايورقا"(7).

عوائل جيراني ورفاقي، وكل العوائل التي أعرفها عانت بالطريقة عينها.

بماذا تفكّر عندما يضجّ العالم اليوم بفضائح القوانين التنفيذية ذات الدوافع السياسية في أحد البلدان المتخلّفة؟..

في وقت السّلم وبعد مضيّ أسابيع وشهور وسنين على ذريعة الحرب الأهلية، فإن جهازك القمعيّ وبإشارةٍ منك يستمر بإدانة وقتل آلاف الإسبان.

وكأن الجدران بحاجة إلى جرعات أكبر من الدماء، بما في ذلك هؤلاء الذين لجؤوا إلى الخارج وسلّمهم النّازيون.

حدادٌ عميقٌ من ضباع تجهش قيحاً يسقط على رجال إسبانيا. ألم تكن من صرّح في تلك الأعوام: (إذا تطلّب الأمر سنقتل نصف البلد)؟..

---

7) جزيرة في اسبانيا.

Twitter: @alqareah

اقرأني :

ليس في ما أقول ضراوة حاقدٍ

إني أقول فقط ما أعتقد أنه الحقيقة .

وأكرر أنني أكتب إليك مع الحب.

ولمَ أحقد عليك؟..

فأنت لست سوى نمرٍ من ورق... الشّعب هو الجبّار.

ولابد من لفت نظرك إلى المكان الذي جئت منه، الضرر الذي أحدثته، وإلى الألم الذي تسببت به مؤسساتك.

ذرائعك معروفة:

الجمهورية كانت تنزلق، من وسط الفوضى السّاحقة نحو الأناركية والماركسية. لم تكن حقوق الإنسان لتُضمن ولم يكن الأثرياء ليعيشوا بهدوء .

الاعتقالات الاعتباطية كانت لتتضاعف، الاعتداءات، الإضرابات الثّورية، وأخيراً الرصاصة في العنق. كحالة "كالبو سوتيلو"[8] التي أزالت الضّباب عن الوضع.

مناخٌ من انعدام الأمن والفوضى كان يعصف

8) سياسي وفقيه إسباني 1893- 1936.

Twitter: @alqareah

بإسبانيا.

هذا كان ما برّرت به انقلابك العسكريّ وقلت حينها إن إسبانيا كانت بربريةً صرف.

إنك أنت من أتى بالبربرية، تلك التي كانت في عصر ملوك الكاثوليكيين والاستبداد الدينيّ.

فأنا لا أعتقد أن هناك أخياراً وأشراراً، هناك فقط عنفٌ أعمى وضحيةٌ مغمورةٌ بالرماد.

إسبانيا، تعجّ برجال "العدل المسلّحين" حتى الأسنان، وبالمحققين والزعماء الذين لا يقهرون والمدججين بالسلطة، وعلى وجه الخصوص (أصحاب الحق) والذين يريدون فرض هذا الحق بالدم والنار.

لو كنت شاباً ألمانياً في ثلاثينيات القرن، لكنت قد كتبت رسالةً كهذه إلى هتلر.

أما اليوم فإني أكتبها لك دون كبرياء.

***

Twitter: @alqareah

والآن دعني أرو لك سيرةً أعرفها جيداً: سيرتي.

عندما أعلنت الهجوم على الجمهورية الإسبانية لم أكن قد بلغت سنيَّ الأربع وخلال حياتي الواعية كانت إسبانيا دائماً في إدارتك.

يالتصحّر هذا البلد!.. ويالوحدة هؤلاء الرّجال!.. وما أطول هذا الكابوس.

خمسة وثلاثون عاماً مدفونون بين الأبواق.

الانقلاب العسكري (الانطلاقة) بدأت في 18 تموز عام 1936 وحيث كنت أسكن في مليليه مع عائلتي تقدّمت إلى يوم 17 وسط ذهولٍ مطلق.

وكنت وعائلتي سنعيش تراجيديا الحرب الأهلية ومأساة الأعوام اللاحقة، أي باختصار سننزل إلى مستوى الفقر.

يومها اعتقل والدي كسائر رجال مليليه وإسبانيا الذين يعرفون كليبراليين أو جمهوريين أو ماركسيين.

لم يستطع أبي فعل شيءٍ للدفاع عن أفكاره فجاءت صدمة الانقلاب العسكريّ لتمنعه من اتّخاذ أي قرار.

لا يهم.

Twitter: @alqareah

اعتقلـه المنقلبـون، وألـصقوا بـه مباشـرةً التّهمـة الدّامغة بالتمرّد العسكريّ، وحكموه بالسجن المؤبّد.

هي حالةٌ من بين الآلاف، بل مئات الآلاف.

كم من رجالٍ تفاجؤوا في أسرّتهم، في أشغالهم، أو على موائد طعامهم بنبأ الاعتقال؟..

قُتل العديد منهم دون أي إجراءات.

سأذكر أبرزهم:

الشاعر "فيديريكو غارثيا لوركا".

أُعـدموا دون إجـراءٍ يُـذكر: رجـالٌ، نـساءٌ، أطفـالٌ، طفلات.

هذه شهادة "فيالونغا"(9) أحد جنود قوّاتك:

كـان أكثـرهم حظّـاً يحظـى بمهزلـةٍ مـن إجـراءاتٍ قضائية تنتهي غالباً بإعدامه.

كمـا فـي عـصور الاسـتبداد الـديني، المـوت عقابـاً لجريمة الرأي.

وهكـذا قُتـل كثيـرون فـي مليليـه الـصّغيرة، وفـي إسـبانيا تمّـت ملاحقـة الكثيـرين فـي محـاكم لـم تـدم

---

9) كاتب أرستقراطي1920-2007، قاتل إلى جانب قوات فرانكو.

Twitter: @alqareah

جلساتها دقائق، حيث كان محامو الدّفاع أعداءً بلا خبرةٍ قانونية.

أحياناً وقبل ساعاتٍ من الجلسة الختامية في نفس المحكمة، كان المحامون مضطرين للدفاع عن ثلاثين رجلاً حياتهم على المحكّ، وفي أحسن الأحوال كانوا يعترفون بالجرائم الفظيعة لموكّليهم ويطلبون تخفيف الأحكام فيكون (الدّفاع) أظلم من التّهمة نفسها.

هكذا (حُكِمَ) على مئات الرجال في مليليه، ومئات الألوف في إسبانيا.

هناك رجال حُكِمَ عليهم بالإعدام مراراً، فكيف سيتّسع جدار قبرٍ لهذه الإعدامات.

أو خذ مثلاً حالة رجلٍ حُكِمَ بالإعدام في محكمةٍ عسكرية بتهمة قتل راهب القرية حيث كانت محاكمته المختصرة على وشك التنفيذ حين اقتحم قاعة المحكمة كاهنٌ قال للقضاة أنه الرّاهب المزعوم وأنه لم يكن قد قُتل في المنطقة الحمراء بفضل تدخّل المتّهم لإنقاذه، التأمت المحكمة للتداول مجدداً وبعد لحظات صدر حكمها الجديد:

Twitter: @alqareah

تخفيف الحكم من الإعدام إلى السّجن المؤبّد (تقديراً له).

فإن رجلاً استطاع إنقاذ راهبٍ في المنطقة الحمراء يستحقُّ قضاء ما تبقّى من حياته في السّجن.

وفي الواقع مات هذا الرجل في سجن "بورغوس"[10] بعد سنين طويلة. فما أكثر الرّجال الّذين اختفوا إلى الأبد ولم يتركوا أية بصمةٍ من تضحيتهم غير الطّوعية بحياتهم .

ما أكثر الّذين خسروا حياتهم بصمت التّرباس، وسحقهم النّسيان وكأنّهم قاطرةٌ دون ذاكرة.

رجالٌ ابتلعتهم الأرض إلى الأبد ولم يبقَ لهم أثرٌ في أيٍّ قوس نصر، في أيٍّ من كتب التاريخ، ولا حتى في ذاكرتنا.

ماتوا وهم يصرخون: (فلتحيا الحريّة)، هؤلاء هم الّذين لم يتكلم عنهم أحدٌ أبداً. فيبقى استشهادهم مخفيّاً من قِبل عائلاتهم خوفاً من القمع فيتلاشى من الذّاكرة.

---

10) مدينة في شمال إسبانيا.

Twitter: @alqareah

هؤلاء هم آباء الكثيرين من رجال جيلي، جيل ما بعد فرانكو.

نعم، صحيح أن علينا نسيان كلّ هذا كما يُقال الآن... ولكنّي لا أنساه .

يتوجّب علينا النّظر إلى ما هو آتٍ ولا يمكننا التّمسّك بعنادنا.

لقد أكّد أتباعك أن عُنف الانتفاضة والبربرية التي حملتها، أدّى إلى تزايدٍ غير مبررٍ في سفك الدّماء.

ولكننا جميعاً نعرف جيّداً كيف عاقبونا بعد سحق الانتفاضة.

العبودية لم تتوقّف حتّى بعد مضيّ اثنين وثلاثين عاماً على (النّصر).

في بورغوس منذ شهور شاهدنا رجالاً قد عُذّبُوا وقُيّدوا في محاكمات لم يُسمح لهم فيها حتى بالدّفاع عن أنفسهم.

يُقال كلّ هذا ويُعاد، ويتوجّب علينا نسيانه، لكن ثمّة شرطاً واحداً: أن لا تُعتبر هذه المعركةُ حملةً (فتوحات) وألا يُعتبر مؤيدوك أبطالاً وشهداء وألّا يُعتبر

Twitter: @alqareah

الثُّوار قطّاع طرق.

فليذهب كلّ شيءٍ إلى النّسيان، نعم، لكن بعد إدانة هذه الحرب كندبةٍ على جبيننا.

عليك أن تعترف بشكلٍ علنيٍّ ورسميّ أن الجرائم التي ارتكبت وترتكب باسمك لا نهائية.

إن مثالية الكثير من المناضلين معروفة ومعترفٌ بها وإن البربرية التي وظّفوها ينبغي لها أيضاً وبالشكل نفسه أن تُدان وتُحظر إلى الأبد.

***

عندما أُحدّث عن ضرورة أن أكتب إليك هذه الرسالة، يعتبرونني متفائلاً للغاية، يظنون أن رجلاً مثلك ترأس الرّعب طويلاً، غير قادر على العودة إلى الوراء ولا الاعتراف بالجرائم التي ارتُكبت وتُرتكب باسمه.

وأنا أقول كلٌّ يمكن دعوته إلى نعمة العفو والتسامح، لمَ لا وأنت الّذي تعذّب مراراً ولطالما سفك

Twitter: @alqareah

الألم من حوله.

كنت أكلّمك عن والدي وكيف حُكم بالإعدام كالكثيرين ولكنّي نسيت أن أقول لك إنه حظيَ بفرصة تخفيف الحُكم (بعد مُضيِّ ثمانية أشهر على تواجده في ردهة الإعدام) إلى ثلاثين سنةٍ ويوم.

هل تعلم أن السّجناء كانوا يوضعون في أقفاصٍ حديديةٍ صغيرةٍ جداً؟..

أنا كنت في الرابعة وقتها وعند نهاية الحرب، في السابعة.

كنت الشاهد الطّفل على الحريق وعلى نوبة موتٍ حُفِرَت في لحمي وفي روحي كالحديد المصهور.

إن العديد من الأولاد شاهدوا مثلي هذه العروض!..

أولادٌ كانوا يحلمون بخشاخيش من ديناميت، واشتباكاتٍ على حافّة المهد.

ثمّة في ذاكرتي ما هو دقيقٌ ولا يُنسى عن الحرب... عن القمع والرّعب والذّعر والاتّهامات، وعن أبناءٍ اشتكوا على أهلهم وأخوةٍ تشاجروا عن تعصّب ورقابة (رسائل

Twitter: @alqareah

مفتوحة، أحاديث مندسّة وخطا مرتعشة). كان يُحكى عن جنودٍ يضعون أحزمةً صُنعت من آذان الجمهوريين وكأنها غنائم حرب، وكان الصّدى المشوّه للقتل في "باداخوس"[11] يصل من وسط ساحة الثيران حيث صار الدّم سيولاً من حياةٍ ميّتة، والمعتقلون يحطّمون رؤوسهم بالجدران هرباً إلى العذاب بفضل الموت.

أطفالٌ ونساءٌ ساروا مئات الكيلو مترات مذعورين، فارّين... إلى... فِرَقِ شبّيحتك.

كانت الحياة اليومية محكومةً بالمناخ ذاته..

في الكنائس النساء يجثُون بورعٍ على المَذبح حتّى ينهضن بركبٍ مدمّاة، وفي المواكب نساءٌ هشّات يسحبن السّلاسل الحديدية لجرّ الكرات الفولاذية الضّخمة إلى أن تتمزّق كعوبهن، في حين أن صحفكم كانت تنقل لنا تقارير عن فظاعاتِ " الحُمر"[12]، سواءً كانت محقةً أم لا ولكن هذه التقارير كانت مبدعةً تماماً كالصدمةِ التي كانت تُحدثها بأدمغتنا الطفوليّة، أمّا الراديو فكان ينشر

---

11) مدينة غرب إسبانيا قرب البرتغال..

12) نسبةً للجمهوريين الذين انتفضوا في وجه انقلاب حزب الكتائب.

Twitter: @alqareah

تلك الإعلانات بأصوات جنرالاتك الّذين لم يتوعّدوا بتصفية جميع الجمهوريين فحسب بل وباغتصاب نسائهم أيضاً.

حتّى الأعياد ضُرّجت بالدماء وكلّلت بالموت:

في المواكب المقدسّة، أوهمتم العذراء بقدرتها على صنع المعجزات، واضعين حمامات لا تطير على قدميها من شدّة قوّة العذراء الروحية، في حين أنكم في الحقيقة كنتم تثقبون عيون الطيور المسكينة بالدبابيس وتقطعون أعصاب أجنحتها فتترنّح الطيور المسكينة عمياء مذعورة عند قدمي صورة.

هذا الزّمن لا يمكن إنكاره حين ادّعت أجهزة استخباراتك أن العذراء كانت قد غطّت بعباءتها السّحرية عبور مرتزقتك من مضيق جبل طارق.

وفي الواقع: جنود هتلر من قاموا بتأمينهم.

هذا كان جوّ الكراهية والخوف والكذب الذي عشنا فيه خلال سنيّ الحرب الثلاث.

وإن (انتصاراتك الدّائمة) أحكمت السّياج حولنا بسكاكينها البكماء لتزيد من عزلة إسبانيا.

Twitter: @alqareah

ويوم انتهت المسابقة (الحرب) تجمّع المئات في السّاحة الرّئيسية لمدينة "رودريغو" التي كنت أقطنها واستمعنا جميعاً بصمتٍ إلى آخر صيحات الحرب.

قرأت فخامتك بصوتٍ واضح على ما أذكر، دون مشاعر معينة إعلان انتهاء الحرب وكيف أن "الجيش الأحمر" بات منزوع السّلاح.

ساد صمتٌ كنت تستجمع فيه كلماتك فسارع أتباعك إلى التصفيق بقوّة، معطين الأوامر للجميع بتقليدهم، وكم يجيدون ذلك!.. صفّقت السّاحة بأسرها ثمّ أنشدوا نشيدهم الوطنيّ رافعين أيديهم إلى السّماء.

وأنا تراءى لي كيف أن الكثيرين كانوا يتطلّعون نحو السّجون وانتابني شعورٌ بأن أنظارهم توجّهت بحنانٍ وتواطؤ إلى هؤلاء الرّجال الّذين اكتظّ بهم معتقل مدينتهم "رودريغو" والّذين نادراً ما سمعنا صراخهم يصعد من الحفر.

ذات يوم كنّا نلعب حول هذا السّجن، فسألنا أحد الحرّاس:

لماذا يصرخ السّجناء ؟.. فردّ الحارس بخجل محاولاً

Twitter: @alqareah

إثـارة الدّعابـة: لأنهـم لا يريـدون صـعود الـسّلالم باصطفاف.

في هذا الزمن وفي كلّ السّجون كان المعتقلون يـصيحون وكانـت صـيحاتهم جـزءاً مـن يومياتهم الاعتيادية، فظروف الاعتقال كانت "دانتسكية"[13].

وفي أحسن حالاتها كانت لا تطاق بالنّسبة لإنسان متحضّر.

فأنا كنت قد تبادلت الحديث مع معتقلٍ سابق وبعض المعارف المشتركين، أخبروني عن المعسكرات والمعتقلات في ذلك الوقت.

في الوقت الذي كان فيه العالم، منشغلاً بالحرب العالميّة، ناسياً إسبانيا وآلامها في السّجون دون أية رقابة، هذا الرجل عاش في ظروفٍ لا إنسانية في أوقاتٍ استقبلت فيه السّجون خمسين ضعفٍ عن طاقتها الاعتيادية.

كلّ واحدٍ له بالكاد ثلاثون سنتيمتراً، المئات في الممرات يلتصق أحدهم بالآخر دون حراك لئلا يوقظ

---

13) نسبةً لدانتي وهو شاعر إيطالي كنايةً عن الرعب..

Twitter: @alqareah

جيرانه.

ومن حينٍ لآخر يغيرون وضعياتهم كلّما تأوّه أحدهم.

***

وإلى آذاننا نحن الأطفال كانت تصل أصداء تعذيبٍ قادمةٌ من العصور الوسطى وانتقام رجالٍ مذلولين، مجروحين ومعذّبين.

ورغم الصمت المطبق للإعلام والصّحافة، كنّا نعلم أن أسرى عديدين قد قتلوا هنا وأن آخرين دُفنوا هناك.

كانوا يبصقون حتى على الرصاصات.

كنا نعرف أن السّجناء يأكلون ويقضون حاجاتهم في علب السّردين نفسها، وأن الكثيرين منهم ماتوا جوعاً وأن آخرين هلكوا في مخيمات اللّجوء.

أمّا في مدريد حيث انتقلت لأعيش في التاسعة من عمري، تحوّلت المدارس إلى معتقلات كمدرسة "سان

Twitter: @alqareah

أنطون" و"بورلبير".

لم تكن إسبانيا إلّا سجناً كبيراً مؤلّفاً من سجونٍ صغيرةٍ تسعى إلى الجحيم. كنّا نعرف أن الشّتاء القارص كان يقتل السّجناء حرفيّاً في "ترويل وبورغوس"[14].

فالتدفئة الوحيدة كانت بطانيةً هزيلة (يشاع أن إسبانيا هي البلد الأوربي الذي يترك السّجون بلا تدفئة).

***

كم أتمنّى لو كان كل ما أقول كذباً!.. أو لو كان باستطاعتك أن تُثبت لي أن كل الأصوات التي أرعبت طفولتي وشبابي (تلك الأصداء التي تأكّدت لاحقاً في الكتب التي قرأتها في المنفى) أن تكون كلّها من اختراعي.

***

14) مدن في إسبانيا..

Twitter: @alqareah

في عام 1945كنّا في العاشرة من العمر حين جعلونا ننخرط في التدريبات العسكرية وهناك تعلمنا أن نغنّي، (لتحيا الثّورة، لتحيا كتائب الجونز)[15].

علّمونا أن نلقّب زملاءنا بالرفاق وأن نكره الفن وانكلترا وروسيا، جعلونا نرتدي قمصاناً زرقاء لنتذكّر جهد العمّال، في الوقت الذي كان فيه سادة الكتائب العمّاليون يعدّون لثورتهم النقابية.

أتخمونا بالخيانات، دفعونا لأن نشي ببعضنا. وكما راقب مستبدُّو "توليدو"[16] مساءً مداخن المدينة من أعلى التّلال ليعرفوا من يبقى صاحياً ليقيم "السابات"[17].

هكذا راقبتنا عصابة الكتائب وشكّت واشتبهت بنا.

شهدت مراتٍ عديدة اقتياد جيوشك النّساء إلى ثكناتٍ، حيث تُحلقُ شعورهن فقط لأنهن لا يغنين النّشيد الفاشيّ برؤوسٍ مرفوعةٍ نحو الشّمس.

كم من طفلٍ سُجنوا في بيوت الكلاب، بعد إرغامهم على شرب نصف ليترٍ من زيت الخروع فقط لأنهم

---

15) الجونز: حزب سياسي فاشي (جبهة الدفاع الوطني النقابي).

16) مدينة في إسبانيا.

17) وهو طقس يهودي ليلي يُقام ليلة الجمعة حتى صباح السبت.

Twitter: @alqareah

ضحكوا خلال الاحتفال الرسميّ!..

فتيانٌ ضُربوا بشراسةٍ لأنهم لم يرفعوا أيديهم بقناعةٍ كافية.

دون الحديث عن الّذين سُجِنوا لدوافع (أكثر جديّةٍ).

ما أكثر ما أودّ أن أنساه!..

لكن هنالك ما أودّ أن أفصّله أكثر:

كنت أعيش في مدريد في عام 1946حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، وفي أحد الأيام الصاحية في مدرسة سان أنطون قال لنا أستاذ التّربية القومية (الإلزامية) هذا الشّخص الذي كان يحاول أن يجعل منّا جميعاً فاشيين:

يجب أن نخرج في مظاهرةٍ "لدعم إسبانيا" في وجه الأمم المتّحدة، التي طلبت مقاطعة البلاد، قال إننا سنذهب مع "كل سكّان مدريد إلى ساحة الشّرق".

وتحت وطأة العقاب الحاد، مصطفّين، وضعونا في تشكيلاتٍ لنمضي نحو هذه السّاحة.

وبدلاً من الذّهاب مباشرةً جعلنا من كان يقودنا ويحرسنا نمرّ من ساحة كولون، لسيبيليس لساحة

Twitter: @alqareah

القلعة.. إلخ.

لاحقاً، فهمت لماذا علينا قطع كلّ هذه المسافة: لتعجّ مدريد بأسرها بالمواكب "العفوية".

أرغمونا على الهتاف عالياً بشعاراتٍ لم نفهم معظمها على الإطلاق.

والمعجزة هي أنني أيها الرئيس أذكر بعضها إلى الآن:

(إذا كان لديهم أمم متّحدة فنحن لدينا اثنتان. واحد: الأمم المتّحدة، اثنان: الخصيتان)..

(ثوريز[18]) ثور، ثوريز ثور).. كنت سأعرف بعد سنين قليلة من هو ثوريز الذي كان يغيظ معلّمينا إلى هذا الحد.

يومها وصلنا إلى ساحة الشّرق وكنّا ـ دون عجل ـ أكثر من نصف مليون شخص.

من المعامل والمكاتب خرج المتظاهرون بنفس الطّريقة، بتهديداتٍ مطابقة حتّى أن الكاتب المسرحيّ المسنّ "خافينتو بينافينتيه" اقتيد إلى الساحة أيضاً.

---

18) ثوريز: سياسي فرنسي يساري..

Twitter: @alqareah

وهكذا ربما تصادف الكاتب الكبير والكاتب الذي كان قيد الولادة (أنا) في الازدحام لنتبادل الخبرات في الكتابة والمسرح ونبذ التّعصّب.

بين المخالب والخناجر والجزمات الجلدية حيث لا متّسعٌ للأنهار أو النّجوم تبادل المسنُّ المكبَّل والفتى اليافع النظرات كخواريف الشّتاء.

***

وبعد شهور وفي عام 1946 أستجدّ حدثٌ سياسيٌّ آخر، الحدث الذي أذكره بكثير من المشاعر. نُظِّمَ حينها استفتاءٌ لا أذكر سببه وتمّ اعتقال جميع من قاد حملات الامتناع عن التّصويت أو التّصويت بـ(لا).

في ذلك الوقت وخلال أسابيع قليلة كانت البلاد مدعوّةً بأسرها وفق الحملة الرسميّة "صوّت بنعم".

وبشكلٍ طبيعيّ لم يتجرّأ أحدٌ حتّى في سرّه أن يقترح الرّفض.

Twitter: @alqareah

في شارع ماديرا وبالقرب من منزلي، كان ثمة مركز للتصويت تماماً في الشّارع المقابل.

في صباح الاستفتاء قرب مكتب التّصويت كان طابورٌ لا يُصدّق يملأ الطّريق.

جميع هؤلاء الرجال والنّساء من الأحياء الشّهيرة (بيث سان روكيه.. إلخ) اصطفّوا كلٌّ مع بطاقته الانتخابية مرئيةً بوضوح تقول: (نعم).

كيف لي أن أنسى التّعابير المرتجفة لجيراني الذين كانوا يخشون عدم الوصول إلى التّصويت.

حرّك ذعر هشاشتهم في نفسي مشاعر المهانة، يريدون الهرب من عقابٍ كانوا سيتلقونه (بحسب معلوماتٍ رسميّة تدور من فمٍ لآخر) أناسٌ مساكين!..

كبارٌ كِبَرَ الأرض ومهدّدون بقدر هذا الكِبَر.

هكذا كانت السّياسة تتداولُ باسمك في إسبانيا.

كان الجميع حزينين، غريبي الأطوار. نقاشاتٌ حول تواطؤ الماسونية- الليبرالية- اليهودية- الديمقراطية- الماركسية- الاعتداءات الرافضة للأجانب- الانكليز- الروس الملحدون وغيرهم.

Twitter: @alqareah

في مناخ الانتقام والخوف والكذب هذا خرجنا إلى الحياة.

منعت علينا كل أشكال النّقد.

التشكيك بوجود الله كان ليكلّفنا خسارة الدّراسة.

إدانة الكاثوليكية كانت لتجلب أسوأ المخاطر.

أدنى انتقادٍ لشخصك أو لحكومتك، السّجن أوالموت.

الكتب علّمتنا أخطاءً، وأخفت كل ما ينافي أسلوب حكمك.

رقابةٌ على كل المجالات.

نظامك يخشى كلّ شيء.

في كتاب الآداب، الكتاب الأكثر أهميةً خُصّصت سطور فقيرةٌ مفترية عن "فولتير"[19].

قال الكتاب حرفياً: مسخٌ شيطانيٌ يحلم بتدمير الكنيسة!.. وكان أعظم شعراء فرنسا "بودلير ورامبو" في قائمة المذنبين.

مختلف النّظريات الفلسفية، السّياسية، الأدبية، أو

---

19) فيلسوف فرنسي.

Twitter: @alqareah

العلميّة والتي لا تتوافق مع العقيدة الرسمية كان محكوماً عليها بأربعة أحرف.

كان للتعليم مهمّةٌ مزدوجة: تضليلنا وإدانتنا.

هكذا تشكّل جيلٌ من الطّلاب. . جيلي. فتخيّل معي جيلاً أقلّ حظّاً.

في ذلك الوقت، كان الفقر مدقعاً، فلم يكن من الغريب أن ترى الناس وقد أغمي عليهم من الجّوع في الشّوارع.

تعيسةٌ كانت أيامنا، مضحكةٌ مُبكية.

في تلك الأعوام، وفي دار الأوبرا في مدريد، قطعت الرّقابةُ عرض فيلم "هيلدا"[20] بصيحاتٍ تقول (يعيش يسوع المسيح ملكاً).

لقد حُكِمَ على كلِّ نِتاجٍ بأربعةِ أحرف: كافر.

***

20) فيلم من إخراج تشارلز فيدور 1946.

Twitter: @alqareah

كانت هناك صيغةٌ يسارية (رقيقةٌ في الوقت نفسه)، تقفز حيال أيّ نقاشٍ مع رجلِ أمنٍ أو شرطيٍّ:(لا يا سيّدي، أنا يمينيٌّ منذ الأزل).

أي أن اليمين لا يكفي.

بل، وتقريباً كان على المرء أن يكون كذلك منذ الولادة.

كان الموضوع جدياً أكثر مما يبدو عليه.

بعد ثلاثةٍ وعشرين عاماً على انتهاء الحرب، أُعدِمَ "خوليان غريماو"[21] بعد أن وُجِّهت له تهمٌ خياليّة من قِبل قاتليه مضى عليها خمسةٌ وعشرون عاماً.

وقع العقاب على خوليان لأنه لم يكن يمينياً منذ الأزل، ما كان واضحاً في محاكمته المُقتضبة. فالأمر البديهي الوحيد أن إسبانيا بأسرها ومنذ الأزل كانت يمينية، أو تدّعي ذلك وإمّا فعليها أن تواجه السّجن والمنفى.

هنالك ما يوازي ذلك في عصور الاستبداد الكنسيّ، حين كان مرسوم الحاكم يفرض على جميع الإسبان أن

---

21) سياسي إسباني 1911-1963 مدريد.

Twitter: @alqareah

يكونوا مسيحيين "مسيحيين منذ الأزل". لهذا أُطلق عليهم المسيحيين القُدامى.

يا لسخرية التّاريخ: عندما ظهر لقب" القميص القديم" لتمييز اليمينيين.

كان على اليهود والمسلمين أن يتموّهوا بالمسيحية أو يواجِهوا محارق الاستبداد ويُنفوا إلى الأبد.

النّظام الذي فرضته، يُكمِّل الآلام والجرائم فهو يخلق النّفاق والكذب ويُمهِّد الطّريق لمنافقين وكاذبين بقوّة الحربة.

كيف يمكن لنظامك أن يَطفَح بكلّ هذه التّحولات المفروضةِ على الشّعب؟..

من سيُصدّق ان إسبانيا (بقدرةٍ عجيبة) تلك التي كانت تميل إلى الديمقراطية الشّعبية، أو الملكيّة الليبرالية أو حتى الشّيوعية، فجأةً التحمت والتفت بكلّ إجماع وحرارة حول الدّيكتاتوريّة العسكرية؟..

هل سيُصدّقه أتباعك؟.. أمّ أنّهم يعتقدون أنّه بعد سنين من الشّمولية السّياسية يُمكن نزع التفكير الحرّ من البلاد؟..

Twitter: @alqareah

صحيحٌ أننا كنّا أطفالاً تحكّمتم بنا ورجالاً نبحث عن الكلمة، لكن الصّمت كان مبرحاً تحت الأسطح.

***

يقول كثيرون إن الكتابة لك لا تحمل أية جدوى، ويرى آخرون أنني بالكتابة لك وكأنني أقول إن فخامتك تجهل ما نعرفه نحن. قد يكون ذلك صحيحاً.

لا يهم!.. أتمنّى فقط أن تقرأ هذه الرّسالة الصّادقة علّها تكون بنّاءة، وعلّك تستمع لها بالكرم ذاته الّذي أحادثك به.

البعض يقول أن شرطتك ستحاول الانتقام وستجعل حياتي مستحيلة أكثر مما هي عليه أصلاً.

أعتقد أنّها فعلت.

فلينتقموا، لا يهم، ما من شيءٍ وما من أحدٍ سيمنع أن أُرسل لك هذه الشّهادة.

فأنا أعتقد أنّها يجب أن تبلغك.

Twitter: @alqareah

إن غياب النّقد، والمناخ العقائديّ خلقا لنا في شبابنا حالةً من اللّا منطق وكأنه كابوس.

إن أحداً قطّ لم ينشر علناً تصريحاً يُدين فيه الوضعَ، بل على عكس ما يُمكن تصديقه، غسيل الأدمغة هذا كان يُحفّز ردود فعلٍ منافيةً تماماً للمُنتظر.

في الخفاء، كنّا جميعاً مقتنعين بأن الإعلانات الرسمية أو المعلومات الحكوميّة كانت دائماً كاذبة.

وهكذا استطعنا إنكار الحقائق البديهية لأنّها كانت تُلطّخ بالأختام.

كنّا نحن جيل المُكذّبين، لا نثق بأيّ شيء.

وبشكلٍ موازٍ، كنّا على استعدادٍ للاعتراف علناً بأكبر الانحرافات، لنربح قوت يومنا.

كان الجّميع بحاجةٍ إلى شهادتين:

شهادة الولاء للنظّام (يمنحها موظّفو الحزب).

وثانية لحسن السّلوك، أي أن نكون كاثوليكيّين ممارسين وهذه يُعطيها القس.

لقد حلفنا الولاء والكاثوليكيّة مراراً، دون الإيمان لأن هذا اليمين كان حاجزاً لابدّ من تجاوزه لكي نحصل

Twitter: @alqareah

على عملٍ أو لنلتحق بمقاعد الدّراسة.

في عام 1949، أردت العمل في شركةٍ خاصّة (شركة صناعة الورق الوطنية)، وبالطبع طُلبت منّي كلتا الشّهادتين ككلّ الإسبان الّذين حاولوا أن يأكلوا بعرق جبينهم.

بعنادٍ ملحوظ يدخلون مُخضعين وذابلين إلى متاهة الفولاذ.

***

هذا الجّو الطّاهر (جوّ آمين)، دون أدنى درجات النّقد كان يودي بنا إلى النهايات الأكثر فكاهية، وغير المتوقّعة.

في وسط عاصفة القوميين المتفاقمة. حيث جميع أجهزة الرأي تُعلن أن إسبانيا كانت أفضل بلدٍ في العالم، وأن كلّ ما هو إسبانيّ كان الأروع، وقع حدثٌ ربما تكون قد نسيته لكنني أعتقد أنّه خيرُ مثالٍ عن الوضع المزري من التّخلّف وغياب النّقد.

Twitter: @alqareah

فجأةً، قرّرت السّلطات أن "الكونياك" الإسبانيّ هو الأفضل في العالم وأنه من العار الوطنيّ أن يحمل اسما فرنسياً، فأُقيمت مسابقةٌ وطنية لتسمية الكونياك الإسباني الذي لا مثيل له.

وخلال أسابيع، حشدت السّلطات البلاد في وسط التّوقعات القصوى واجتمعت أرفع الشّخصيات الثّقافية الإسبانية الفرانكوية في هيئة المحلّفين لتتويج الرابح.

ومالم يتوقّعه الشّعب المعذّب هو اختيار اسم "خيرينياك" الاسم الذي يبدو فرنسياً أكثر من سابقه.

"أيها النّادل، خيرينياك من فضلك"..

خلال شهور، كان عدم استخدام هذا الاسم السّخيف في مقهى ما ليجلُب المخاطر.

" أيها النّادل، خيرينياك من فضلك" ..

كان ذات الزّمن الّذي نشرت فيه سعادتك أفضل روايةٍ في الغرب المسيحيّ راثا"[22] الرواية التي ألهمت فيلماً يحمل الاسم نفسه (والّذي ترك بصمةً في تاريخ السينما).

---

22) تعني في الإسبانية عرق أو سلالة.

Twitter: @alqareah

في الوقت الّذي اعتُبر فيه بيكاسّو، بونويل، ألبيرتي وغيرهم مجرمين وكاذبين.

تنقّلت بين عدّة مدارس بعد الحرب، جميع الحصص تبدأ بالصّلاة في كلّ المدارس الخاصّة والحكومية، في سائر القاعات والصفوف صورٌ لك و"لخوسّيه أنطونيو"23 وبين الاثنتين: أخرى للمسيح.

كلُّ صباحٍ، التّلاميذُ في تشكيلات مصطفّين نغنّي وأذرعنا مرفوعةٌ أناشيد وطنيّة تنتهي بالهُتاف (فلتحيا، وإلى الأمام إسبانيا).

موظّفو الدّولة والحزب الوحيد (الكتائب) كانوا يُعطُوننا دروساً في التربية الوطنية، الدينية وتلك الرياضية.

وعن طريق المواد الأخرى التي تظهر في الكتب المدرسيّة كالرياضيّات والنّحو كانوا ينتزعون أيةَ روح نقديّة قد تتسرّب لنا، ليطبعوا العقائدية في أذهاننا.

هذه المواد الثّلاث تعقّبتنا خلال فترات الدّراسة، ليس فقط في المدارس والثّانويّات لا بل وفي الجّامعات

---

23) مؤسس وزعيم حزب كتائب إسبانيا.

Twitter: @alqareah

أيضاً.

في عام 1955، كنت أُنهي الدّراسة في كليّة الحقوق في مدريد، كان عليّ أن أُجري امتحاناتي (غاسلة العقول).

في حالةٍ من النّفاق، تلك الّتي لا تتغيّر.

الطّلاب الذين هم مهندسو اليوم محاموه وأطباؤه كانوا في معظمهم معارضين لنظامك... يرون أنفسهم مرغمين على دفن أفكارهم ومعتقداتهم الأكثر صدقاً ونبلاً، والتّعبير خلال امتحاناتهم "عن حبّهم لقيادتك الحكيمة وللكاثوليكية" فقط لكي يُنهوا دراستهم.

من كان ليُعجب بهذه "التحوّلات" في فترة الامتحان؟..

كنّا متمرّسين جداً على هذا الغيظ، فببعض النّكات كنّا نفرّغ الكره والاحتقار لهذه المواد الثّلاث، كعاهراتٍ تتبع خُطانا خلال فترة الدّراسة.

***

Twitter: @alqareah

هل كنتُ يتيماً في هذه الحقبة؟..

ماذا حلّ بأبي؟..

أظن أنّه من حقّي طلب تفسير منك ومن وزرائك.

هذا الرّجل الذي كان يدفن أقدامي في رمال شواطئ مليليه.

أذكر راحة كفّيه فوق أرجلي الصّغيرة.

كنت في الثّالثة.

كانت الشّمس تسطع على قلبٍ يتلألأ على قطرات الماء اللانهائية.

عندما أُسأل عن أكثر الأشخاص الذين أثّروا فيّ، أُجيب دائماً أنّه كان كائناً أتذكّر فقط راحتيّ كفّيه على أقدامي: أبي.

أمضيت سنيناً أجوب إسبانيا بحثاً عن رسائله، لوحاته ورسوماته.

إن كل عملٍ من أعماله يوقظ في أعماقي عوالم من الصّمت الصّارخ الذي يفيض بالدّموع.

صدر حُكم إعدامه في مليليه، ثمَّ خُفِّفَ إلى ثلاثين

Twitter: @alqareah

عاماً ويوم، انتقل بعدها من سجن "ثيوتا"[24] إلى مدينة رودريغو ثمَّ إلى بورغوس.

مزّق في ثيوتا شريانه محاولاً الانتحار وما زلت أشعر بدمائه تتدفّق على ظهريَ العاري.

في 4/ تشرين الثاني/1941 وبعد أن اشتكى من "مرضٍ عقليّ"، كما يُقال، نُقِل إلى مشفى المجانين في بورغوس.

بعد خمسةٍ وأربعين يوماً فرّ من هناك، واختفى دون رجعة.

التقيت سجّانيه في أسفاري، ممرّضيه، أطباءه...

لم أستطع مطلقاً أن أتخيّل صورته، ولا حتّى تعابير وجهه.

في يوم اختفائه، كانت الثّلوج تُغطّي بورغوس، يقول الأرشيف، إنّه لم يكن يحمل أيّة أوراقٍ ثبوتيّة.

لقد خرج مرتدياً ثياب النّوم.

وُلِدَ والدي في قرطبة عام 1903.

حياتُه حتّى يوم اختفائه كانت الأتعس.

---

24) مدينة إسبانية في شمال المغرب.

Twitter: @alqareah

إن النّميمة والصّمت والنار لم يُطفِئوا صوت الدّم الذي عبر الجبال ليغرقني في النّور.

يبدو أنّ هناك من يريد لي دفع ثمن عدم التّخلّي عن والدي، بالأحرى أولئك الّذين لا يحملون في قلوبهم سوى العنف.

أمّا أنا فسأمدّ دائماً يد الأخوّةِ لهم بغضّ النّظر عن أفكارهم التي تُعارض العدل.

هذا كان ما سيقوله ذلك الرّجل الّذي أذكر يديه وهما تطمران قدميّ بالرمل على شواطئ مليليه.

ووالدي، هل اختفى إلى الأبد؟..

هل ابتلعته الأرض؟..

إنّك أنت المُذنب أيّها الرئيس، وعليك أن تُجيب!..

كثيرون اختفوا مثله. .

وآخرون أصيبوا بالجنون.

حتّى في الجامعة، حيث معظم الطلاب ينتمون إلى عائلاتٍ ميسورة تحوّل بعضهم إلى غريبي أطوار، وهذى بعضٌ آخر. كهذا الذي ظنّ أنّ راديو يبثّ مسيراتٍ عسكريّة قد وضع في صدره.

Twitter: @alqareah

أو طالب الطبِّ اللامع ذاك، الذي ترك الكليّة ليقرأ (القصص المصوّرة). وعندما كان ينصحه أحدهم بمتابعة الدّراسة كان يقول: دراسة؟.. أنا؟.. ولِمَ؟.. أنا أحبّ القصص المصوّرة.

أو طالب الحقوق الذي غاص كدونكيشوت في محافل العلم ليثبت لنا أنَّ أدمغتنا مسيّجةٌ بأسلاك وأنّ وضعيّاتٍ معيّنةٍ للرّأس تشكّل أخطاراً.

أذكر فتاةً كان عملها في الخياطة بالكاد يطعمها، كانت تلجأ إلى كتاب الأغذية تقرأ فيه مراراً لتسكت جوعها مثلها كمثل الذّي يستخدم روايةً إباحية ليطفئ شهواته الجنسيّة.

لقد كان كلُّ شيءٍ حولنا مجنوناً...

وبطريقةٍ رسميّة!..

المناسبات تنتهي بأمرٍ حكوميّ مع النّشيد الوطنيّ والصيحات المألوفة: "يحيا فرانكو، إلى الأمام إسبانيا".

في ذات يوم، في سينما كارلوس الثالث في مدريد، ولدى انتهاء العرض حاول المشاهدون ـ دون أغراضٍ تخريبيّة ـ تفادي الوظيفة. فحاصر رجالالشّرطة المكان

Twitter: @alqareah

المغلق وأجبرونا على رفع أيدينا وإنشاد "وجهٌ مرفوعٌ نحو الشّمس" مراراً و تكراراً.

كان هذا زمن الرّعب على جميع الأصعدة: السياسيٌّ (بطبيعة الحال)، والدينيٌّ، والجنسيٌّ أيضاً.

على سبيل المثال، مؤسّسة "بيت العمّال" الدينيّة في مدريد، كانت متفرّغةً لمفاجأة العشّاق الّذين يتمدّدون على التلال تحت فيء الأشجار، يوسعونهم ضرباً أو يرشقونهم بالماء البارد.

ويقولون: عليكم أن تكونوا سعداء أيها الخنازير لأنّنا لم نبلّغ الشرطة.

من نجا من هذه السنين الّتي تطوّرت فيها طفولتنا وعشنا فيها شبابنا دون ضرر؟..

طفولةٌ مجروحة القلب تسبح في مستنقع من ماءٍ عفن.

كان الجميع صادقاً للغاية يحسبون ألف حساب، كما يقال.

هذا هو الكفر بعينه!..

الكفر الحقيقيّ هو جعل السواد الأعظم من النّاس

Twitter: @alqareah

يقاتلون طواحين الهواء.

كلمةٌ واحدة بحقّ الرّب (الذي يملكه الأقوياء) كانت تكلّف صاحبها السّجن والعقاب.

أنا أحدّثك هنا بشكلٍ مستمرٍّ عن أشياء شاهدتها، أو سمعتها.

مثال ذلك: مجموعةٌ من الشبّان السكارى خطرت لهم فكرةٌ رديئة، تغوّطوا على صليب الكنيسة... فحكم عليهم باثنتي عشرة سنةٍ لكلٍّ منهم.

إله الحبّ تحوّل على يد أتباعك إلى إله الانتقام والحقد.

الجمهوريّون والديموقراطيّون الحقيقيّون انخرطوا في حزب الكتائب، وعلّقوا الشعارات والأعلام لكي لا يخسروا أعمالهم المتواضعة التي تطعم أولادهم. فعلوا ذلك بمثاليّةٍ وتعبيراً عن حبّهم لإسبانيا (على طريقتهم).

رجالٌ لبسهم العار!..

كان لا بدّ من الكذب وقتها، العيش في الخداع، التّذرع والطأطأة للفوز بمنصب "بوّاب الوزارة".

لا بدّ من الهتاف والولاء للثّورة النقابيّة ليتحصّل

Twitter: @alqareah

أحدهم على عربة مخابراتٍ لبيع التّبغ في إحدى ساحات مدريد.

هؤلاء الناس المسحوقون الذين كانوا مضطرين لمراوغة أحاسيسهم ومعتقداتهم والذين كان عليهم طوال حياتهم تكذيب أنفسهم خجولين.

فما أكثر الذين ظهروا في المسيرات والاجتماعات واللقاءات الحزبية خوفاً من أن تفتضح انتماءاتهم للنقابات العماليّة والأحزاب الديمقراطيّة.

كانت هناك بلوةٌ في سؤال الآخرين من الأصدقاء المقرّبين:

"هل صحيحٌ أنّه لا فيشة لي"؟..

ذعرٌ حقيقيّ من أن يكون لهم فيشة أمنيّة لدى النظام.

وكان (بالطّبع) لكلٍّ فيشته.

الشّهداء في القبور، الأبطال في المنفى والسّجون.

تماماً كالاستبداد الذي ساد في العصور الوسطى.

أريد أن أبلّغك أنه ثمّة نوعٌ تجهله من الشّهداء...

إنهم شهداء الصّمت!..

Twitter: @alqareah

رجالٌ متواضعون، يشعرون بالحرج في أعماقهم ويعتبرون أنفسهم مذنبين من جراء خيانة أفكارهم.

لم يكن باستطاعتهم فهم أن الذّنب ليس ذنبهم وأنهم ليسوا منافقين لأنهم ببساطة لم يخيّروا بالخيانة والنّفاق، بل هم أُجبروا على ذلك تحت وطأة التهديد بحياتهم وبخبزهم اليوميّ.

عاشوا في الظّلال، مع الوعيد والسّوط، محبوسي الأنفاس والغيظ ومثلهم عاش شعبٌ ذبلت قيمه وشقائق نعمانه.

***

منذ ثلاث أو أربع سنين، عاش في مدريد كاتبٌ مسرحيّ.

لم يكن لديه أيّ جمهور يذكر في إسبانيا أو في الخارج، كان مضطراً للعمل في التلفزيون ليطعم عائلته. كانت زوجته حاملاً في حينها.

Twitter: @alqareah

كـان الجميـع فـي مدريـد يعـرف أنّ التعـذيب فـي أستورياس يتزعّم مراكز الشّرطة والمناجم.

الأصداء الفظيعة عـن ضـراوةِ رجـال الأمـن لـم يـنجُ منها حتّى النّساء.

عندها، كتبت مجموعةٌ مـن المثقفـين رسـالةً إليـك أيها الرّئيس، رسالةً احترمت شخصك ولـم تتعـدَّ علـى أيٍّ من حرمات فرانكو.

ولا حتّى على ميثاق الإسبان، أشاروا في البيـان إلـى ما يحدث، واقترحوا بعض التدابير.

ووقّع على البيان الكاتب المسرحيّ المدريديّ وكـان البيان رسالةً خاصّة لم تنشر قط في البلاد.

وبـادر مباشـرةً موظّـفٌ رفيـعٌ فـي التلفزيـون بإخبـار الكاتب المسرحيّ بأنـه إن لـم يـسحب توقيعـه فسيخـسر عمله أو سيكون مصيره السّجن.

وبصورةٍ ملحميّة أجاب الكاتب: أنّه مـستعدٌ للمـوت جوعاً إذا تطلّب الأمر.

ولدى إبلاغ زوجته بنبأ طرده من التلفزيون، صدمت وأصيبت بنزيفٍ داخليّ.

Twitter: @alqareah

أفادهـا الأطبّـاء أنّ نزيفـاً ثانيـاً قـد يـؤدّي إلـى الإجهاض.

عاد الكاتب المسرحيّ مكسوراً إلى مكتب المدير، وفي اليوم التّالي أعلنت الصحافة الرسميّة أن الكاتب وقّع البيان تحت تهديد عصابات (الحمر)[25] ودون موافقةٍ منه وأنه لا يمكن التشكيك بولائه للنظام.

عاد بعدها إلى عمله، وأنجبت زوجته، وبهدف إذلاله عُيّن في لجنة الرّقابة المسرحيّة.

من كان ليجرؤ على رميك بحصى؟..

ماذا كان ليحدث للذين يرفضون الخضوع؟..

كـانوا ليـدخلون إلـى المفـرزة تلـك ـ المجهولـة ـ المخصّصة لمعارضي النظام.

من كان ليذكر الموظف الـذي استقال مـن منـصبه لأنه رفض تأييد المجرم بتوقيعه؟..

لا أحد!..

هو يعيش اليـوم كآلـةٍ ويعمـل محاسـباً فـي شـركةٍ صغيرة.

---

25) الجمهوريون.

Twitter: @alqareah

من يذكر صحفياً ورئيس تحرير جريدةٍ استقال لأنه لم ينشر معلوماتٍ مزيّفة؟..

لا أحد!..

هو يعيش في المنفى اليوم بلا أسى وبلا مجد، على أمل التغيير المنشود في إسبانيا.

لا قصص تذكرهم، ولا التاريخ سيتذكرّهم.

الفنّان الذي اختار المنفى، رافضاً الاقتناع بنظامك رأى أعماله وحياته وكأن الأرض قد ابتلعتها.

لأن إسبانيا (النظام) ستلحق به دون هوادةٍ في وطنه، والملحقيات الثقافية في المنفى سيذهبون بعيداً بالافتراء لسحقه.

***

خيرة المدرّسين والأساتذة كانوا منفيين، الأفكار المتجددة محظورةٌ.

لم يكن بوسع التعليم الذي تلقّاه جيلنا أن يكون

Twitter: @alqareah

أكثر انحطاطاً.

أطفالٌ توجههم الثيران، وتعاقبهم سيوفٌ عمياء.

محتجزون في كنائس يملؤها الفساد، النّور معتقل والحلم مدمّر.

مناهج التعليم مروّعة.

لقد مررت في مدارس وأديرة (سان أنطون، خيتافه، تولوسا) كان الطلاب فيها يتعرّضون للعقوبة الجسدية.

كان الضرب هو السلاح التربوي.

قصاصاتٌ ملحميّة لم يكن غريباً مطلقاً رؤية أحد الأساتذة (الرّهبان) يركل طفلاً ويلكمه حتّى إدمائه.

لم يكن التّعليم إلا صورةً ومقاربةً للجو الذي كان يسود في البلاد، حتّى نحن الأطفال كنّا نعيد إنتاج العدائيّة التي كنّا نتلقاها، في ألعابنا.

ألعابٌ وحشيّة، كان التعذيب فيها والحديث عن الموت والشهادة يحتلّ أهميّة كبيرة، سواءً بين زملاء الدراسة أو في قتل الحيوانات وبتر أعضائها.

***

Twitter: @alqareah

تتناهى إلى مسامعنا أصوات المعتقلين، ولكن صيحاتهم "التخريبية" مثل (تحيا الحريّة)، كانت لا تصل لأنهم كانوا يمنعونهم حتى من الحديث داخل المعتقل، محاطون بالرصاص يكمّون أفواههم بكمّاماتٍ رطبة مشبعةٍ بالحشرجة.

الكمّامات نفسها كانت توظّف في اليوم التّالي لكمّ أفواه مجموعةٍ جديدةٍ من الأسرى في ذلك القبر نفسه.

كان هؤلاء السّجناء مضطرين للاعتراف ليتمكّنوا من الموت.

هذه المراسم السّريّة التي تدوم بين المتّهم والقس غالباً تنتهي إلى مآسي التّعصّب والتّعطّش للدّم، كأحدهم في سجن بورغوس والذي قُتِل بدم بارد بضربةٍ على الرّأس دون أن يعرف أحد ما الّذي كان يمكن لهذا الرّجل أن يقوله في غرفة الاعتراف ليثير هذا السّخط.

هكذا جرّبوا تربيتنا: بوحشيةٍ وبدم بارد.

وهكذا أرادوا فرض الدّين على عقولنا وفرض الوطنية والفرانكوية: بوحشيةٍ وبدم بارد.

هذا المعتقل، كغيره، انفجر رأسه بصواعق دموية

Twitter: @alqareah

تسيل من أعلى الأجراس.

لقد كانت (وماتزال) للأسف إسبانيا محكومةً من قِبل أقذر قسم من الجيش.

منذ معركة "روكروي"[26] عام 1643، خسِر الجيش الإسباني جميع حروبه: في إسبانيا، أوروبا، أميركا، في المحيط الهادئ وأفريقيا.

واقتصر المجد على المجموعات التي قاتلت نابليون.

لقد استطاعت مجموعةٌ من المغاربة محدودة السّلاح إحراج الجيش الإسباني لسنين طويلة.

كم سجّل التّاريخ معارك للجيش الإسباني تحت مسمّى "الكارثة"؟.. وما أكثر الجيوش "التي لا تُقهر" المحطّمة والمدمّرة!..

عاجزةً أمام الخارج، كان لهذه الفئة العفنة من الجّيش عدوٌ واحد: الشّعب الإسبانيّ.

جائزة الترضية الوحيدة لهؤلاء الجنود الخونة كانت الحروب الدّاخلية والتي لم تُعلّق على صدورهم خلالها

---

26) معركة دارت بين فرنسا وإسبانيا في مدينة روكروي شمال فرنسا..

Twitter: @alqareah

ميداليات الهزيمة.

ويـلاه مـن هـذه التّعاسـة، وهـذا الألـم: لقـد هُـزم الشّعب الّذي كان المسلّحون منه هم صيّادو الأرانب.

ونعم، أقول: "الفئة العفنة والسّفاحة من الجيش".

أنت وأتباعـك نـشرتم الكـذب فـي العقيـدة: "جميـع فئات الجيش بمجمله ثُارت ضد الجمهورية".

على العكس تماماً، الحقيقة هي أن السّواد الأعظـم من الضّباط (ناهيك عن باقي القوات) حمـوا الجمهوريـة في وجه انقلابكم.

حلفـاؤك كـانوا: الفيلـق الأجنبـي، قـوات المرتزقـة المغربية، فاشيّو إيطاليا، النّازيون فـي ألمانيـا... . ونعـم بعضٌ من الجيش الإسباني.

لهذا، كان القمع على أشدّه في وجع العسكريين:

"دومينغو باتيت ميستري"[27]، القائـد العـام لقـوّات المنطقة السّادسة والذي اغتاله "مولا"[28] ثم حلّ منصبه.

---

27) ضابط وقف في وجه فرانكو.

28) إميليو مـولا: ضـابط شـارك فرانكـو الانقـلاب العـسكري ثـم الحـرب الأهلية.

Twitter: @alqareah

"نيكولاس موليرو لوبو"[29]، القائد العام لقوّات المنطقة السّابعة والذي اغتيل أيضاً على يدٍ من خلفه.

القائد العام لقوّات المنطقة الثّانية، "خوسّيه فيرناندیز غيا"[30]، أُعدم من قبل "كيبو ديل جانو"[31].

وفي غرناطة، لم يُعدم الشّاعر "فيديريكو غارسيا لوركا" فحسب، بل وأيضاً الحاكم العسكريّ السّيد "ميغيل كامبينس".

واغتيل أيضاً:

الكابتن "إنريكي سالثيدو".

الضابط :" نونيث برادو" في سرقسطة.

المحقق "لويس مولينا غالانو" في سبتة.

الضابط "روميراليس" في مليليه.

الضابط "كاريداد بيتا" في كورونيا.

الضابط "مينا ثويكو" في بورغوس.

المندوب السّامي في المغرب "آرتورو ألفاريس بويجا" في تطوان.

---

29) وزير دفاع إسباني سابق.

30) ضابط إسباني.

31) من ضبّاط فرانكو.

Twitter: @alqareah

الجنرال "غوميز كامينيرو" في سالامنكا.

الجنرال "لوبيز فيوتا" في إشبيليه.

مدير مصنع الأسلحة "خوسّيه فرانكو موسيو" في أستورياس.

والقائمة تطول.

إن واحداً فقط من قادة المناطق الثمانية العسكرية انضم إلى "ثورتكم" ومن أصل واحدٍ وعشرين، سبعة عشر ضابطاً من أعلى الرُتب في الجيش الإسباني ظلّوا أوفياء للجمهورية.

واحدٌ وأربعون عميداً من مجموع التسعة وخمسين، اختاروا الجمهورية.

كلّ هؤلاء عانقوا قضية الشّرعية الجمهورية إلى جانب ضبّاط الحرس المدنيّ، وقادة سلاح الجّو.

ما أكثر الضّباط الذين قدّموا دماءهم من أجل الجمهورية، لم يكن هناك في التاريخ قط حمّام دم عسكريٌ مماثل دفاعاً عن الجمهورية.

في الوقت الحاليّ يقول حُلفاؤك إن الوضع ليس مأساوياً كما كان في نهاية الحرب.

Twitter: @alqareah

ومع ذلك فإن التّعصّب مازال قائماً.

القانون هو: غياب النّقد.

إن أحداً لم ينتقد شخصك أو أسلوب حكمك طوال الأعوام الخمس والثّلاثين الماضية.

إقرأ جيّداً هذه الجملة التي تبدو مستحيلة:

"لا بصورةٍ مباشرة، ولا حتّى بشكلٍ غير مباشر إن أحداً لم يوجّه لك أدنى انتقاد".

منذ بضعة أعوام، ناشدت صحيفةُ الرئيس "ديغول"(32) بالتّنحّي، ما أدّى إلى إلغاء صدور العدد في إسبانيا لأن القائمين على الرقابة قدّروا أن مقالاً كهذا، قد يُعتبر بمثابة نداءٍ لكفّ يدك عن السّلطة.

جميع التعليقات في الصّحافة والراديو والتلفزيون صبّت دائماً وأبداً بصالح "ملاحم نظامك" وأفرزت مدائح وإطراءات وتحليلات.

جدائل من عسلٍ مرّ تُغرق إسبانيا بصمتٍ أبله.

كيف سنتقدّم دون نقدٍ؟..

كيف ستُصحّح الأخطاء؟..

---

32) شارل ديغول: رئيس فرنسا.

Twitter: @alqareah

فهل ثمّة شخصٌ معصومٌ؟..

إن نخبة الإسبان (وأتحدّث هنا عمّن لم يختاروا المنفى أو السجن) مازالوا خارج دائرة إدارة البلاد.

يا لإسبانيا المسكينة!.. حانةٌ برائحة البول، حيث يُؤكل الطّعام مع سياج من حِداد، وحيث تغرزُ الكلاب الضاريةُ أنيابها في القلوب.

***

تُضيّق الرقابة على الصّحافة، وعلى الفن.

ليس للشعب أدواتٌ للتعبير عن نفسه، لإظهار أوجاعه، أو لاقتراح الإصلاحات.

خذ مثلاً: النقابات ليست موجودةً للدفاع عن العمّال، بل لتوجيههم وإرغامهم على الامتثال للأوامر الحكومية.

في نقاباتنا "المذهلة"، لم يفعل القائمون شيئاً حيال الفضيحة التي تمنع كتّاباً معارضين من ممارسة

Twitter: @alqareah

مهنتهم في إسبانيا (على الرغم من أن جميع القوانين والمواثيق تحمي هذا الحق) بل على العكس، قام هؤلاء المعدّون لحمايتك بقيادة الحملة التي منعت هذه الأعمال من النّشر.

ليسوا بمدافعين عن الكتّاب، بل هم كلابٌ شرسة مستعدّةٌ لنهشنا مالم نكن مطيعين، بُكمٌ في وسط القطيع.

***

أنت تختار "ممثّلي الأمة" عبر أنظمةٍ تمنع المعارضين من الوصول إلى مفاصل الحكم.

العمدة، المحافظ، رئيس النّقابة ومدير الجريدة... إلخ.

كلّ من كان له حيّزٌ من سلطةٍ في إسبانيا كان عليه إثبات ولائه للعقيدة الرسمية ويُخلع إن أخفق في ذلك.

إن غياب النّقد يقود إلى أفظع الكوارث، والانفصال

Twitter: @alqareah

تماماً عن الواقع. فما أدراك بحاكم يتملّقه الجّميع.

مثال ذلك: "ألبرت سبير"[33] وزير هتلر، يتحدّث في مذكراته عن أن القائد "هتلر" أمر بتدمير وحرق أوروبا أمام تقدّم جيوش الحلفاء.

لم يُنفّذ سبير الأوامر - لحسن الحظّ - وكان على موعدٍ بعد أسابيع على المشهد التالي:

فقدت السّيطرة على نفسي (يكتب سبير في مذكّراته) اعترفت لهتلر بصوتٍ منخفض أنني لم أدمّر شيئاً، بل أنني تجنّبت التّدمير بالمطلق.

وخلال لحظات اغرورقت عينا " القائد"..

كطفلٍ ساديّ انتُزعت لعبته، أخذ الشّنيع يبكي على النبأ: أوروبا لم تستسلم بالنار.

وكونه محاطاً بالمتملّقين، لم يخطر بباله أن احداً لن يُطيعه.

يا لفداحة هذا الانقطاع في المعجزة!.. مهرّجين - ثعابين - يقودهم نِسرٌ صدِئ.

إن الشّعب في إسبانيا لم يُستشر يوماً، ولا يعرف

---

33) وزير الدّفاع الألماني في عهد هتلر 1905-1981.

Twitter: @alqareah

أحدٌ رأيه...

يعرضون قضيةً على التّصويت، فتزوّر النتائج إلى درجة أن الأموات أيضاً يصوّتون لصالح الحكومة.

لمَ يُسبّب رأي الشّعب الرعب؟..

خوفٌ من التّفكير، من الكلام، من التّصويت بحريّة.

خوفٌ يملأ الحياة في الوطن.

في عام 1954 وفي المكتب حيث كنت أعمل مع مئات الموظّفين نظّمت انتخاباتٌ نقابيّة لا تحمل أي معنىً سياسيّ، ودون أن يكون لها وقعٌ على المناخ العام.

أخذ الموظّفون يستشيرون بعضهم البعض لكي لا يقعوا في المآزق وتحت ضغوطٍ سخيفة تقدّموا نحو صناديق الاقتراع كلٌّ مع بطاقته الانتخابية مرفوعةً، وهي تحمل اسم مرشّح النّظام.

كانت التّحديات كونيّةً، لا علاوات على الأجور، طردٌ ونقلٌ وسجن.

من الواضح أن الظّلم الذي كان يحكم البلاد في الخيارات الحكومية العليا يسيطر أيضاً على أدقّ التّفاصيل.

Twitter: @alqareah

فمن المنطقيّ - بالطبع - أن يعذّب النّاس هناك في السّجون وأن يُسيء الأطفال معاملة الحيوانات.

ولهذا فلا عجب أن صناديق الاقتراع المحرّفة ستتحوّل إلى انتخاباتٍ محليّة.

***

كنت أنا، أختنق من جوّ القمع هذا، ومع هذه الروح انتهيت بصعوباتٍ رئوية ثم أصابني داء السّل.

رئاتٌ مكسوّةٌ بقماشٍ مهترئ وبحفّاراتٍ عطشى.

اتّخذت في هذه السّنين قراراً تاريخياً بأن أصبح دون التّخلّي عن استقلاليتي وحرّيتي كاتباً في إسبانيا.

الأمر الذي لم أحققه مطلقاً.

بعد عشرين عاماً من الكتابة... لم أُفلح في أن أصير كاتباً في بلادي. أنا لست سوى موظّف إلى جانب الكثيرين.

لم يتسبّب نظام رقابتك بتعفّن رئتيّ فحسب، بل

Twitter: @alqareah

أخذ منّي ما كنت أعتبر أنّه حقُّ الشّجرة في الأرض وهو الكتابة بلغتي.

من يكتب، عليه التّداعي وعليه النّضال ببطولةٍ مخاطراً بحياته ومراهناً على حرّيته... أو فليهرب.

كمثل "سانتا تيريزا دي آفيلا"34، خرجت وخرج الكثيرون من إسبانيا ليغزو المجد!..

مئات الألوف من المهجّرين فعلوا.

***

لقد وعدَ مؤيدو غاباتك المتعصّبون طوال سنين بالقضاء على الفن مردّدين "لتحيا الثّورة".

"الفن: أداة المؤامرة الديمقراطية ـ الأناركية ـ الماركسية ـ الليبرالية".

يا لها من ذكرى محفّزة على نحو متكامل!..

إن لمهنة الكتابة قيمتها بين المهن، بلا إعلاءٍ أو

34) طبيبة وراهبة وكاتبة في الكنيسة الكاثوليكية 1515-1582.

Twitter: @alqareah

انتقاصٍ من شأنها. دعني أشرح لك أيها الرئيس كيف يعيش اليوم في إسبانيا كاتبٌ واعٍ، لا يريد الانخراط في الفساد.

بالنسبة لأتباع، لا وجود للفنان أو الكاتب الحر.

عندما يتفوّه أحدهم في مقابلةٍ باسم أحدهم، تُحذف في الرقابة ويحلّ محل هذا الاسم عبارة (إلخ).

ويتمّ تحذير من يمكن أن يذكروهم في الراديو أو التلفزيون من أن البثّ سيُقطع.

هم ببساطة وبطبيعة الحال ليسوا موجودين. أو بالأحرى، يوجدون فقط لقذفهم وشتمهم.

وأمّا أعمالهم، فمحجوبةٌ وممنوعة.

الإهانة تلحق بهم دون أن يكون باستطاعتهم الدّفاع عن أنفسهم أو الاحتجاج.

وزير المعلومات هو أوّل من يطّلع على أصداء عملٍ لكاتبٍ (حر) في المهجر: ملفٌّ ضخمٌ من الانتقادات يوجّه له من جميع أنحاء العالم.

انتقاداتٌ توجّه ضدّ الوزير.

لأن السّلطات في إسبانيا اليوم لا تساعد كتّاباً غير

Twitter: @alqareah

فاسدين بل وتنصب لهم الكمائن، تسجّل حولهم المعلومات، ويتواصلون مع السّفارات ليوقعوا بهم.

وبين هؤلاء الفنانين آل "الثيربانتيس" وآل "بيلاثكيس" وآل "بيكاسو"[35].

هكذا تحصد ديدانك المستقبل.

يجتثّون الضّوء والموسيقا، ويستأصلون الألوان والكلمات، ويحوّلون كلّ شيءٍ إلى وباءٍ من الجراد.

***

خلال زيارتي إلى مدريد عام 1967 تمّ اعتقالي من قبل "عدالتكم". هذا ما سمح ليَ بالتعرّف على واقع نظام سجون الإصلاحيات.

قد تستغرب أن أكثر ما أغاظني كان تلقيننا: أن مرتكبي الجُنح الصّغيرة كانوا يُعذّبون بشكلٍ منهجيٍّ في مخافر الشّرطة.

---

35) نسبةً إلى كتّاب وفنانين إسبان.

Twitter: @alqareah

ولمَ؟.. لتفعيل البيروقراطية.

فالشرطي الذي يستقبل عدداً من الشّكاوى يلصق هذه التّهم بأوّل الوافدين.

من أجل نظام هو: التّعذيب.

فإذا لم ينفع هذا النّهج مع المجرمين المحترفين الّذين يقضون ساعاتٍ وأياماً بالتّوسّل، سيُجري مع المُبتدئين كالشباب الذين يسرقون السّيارات.

كم من هؤلاء راكموا سنيناً وعقوداً في السّجون بسبب سرقة سيّارةٍ واحدة.

جريمةٌ أُضيفت إليها مجموعةٌ من السّرقات الافتراضيّة يعترفون بها بعد التّعذيب.

كالفتيان في إصلاحية "غارابانتشيل" والّذين حُكِموا بثمانين، مئة وعشرين، مئة وأربعين سنة في السّجن، حين كانوا يلعبون لعبة قطّاع الطّرق وأخذوا سيّارةً لاصطحاب المحبوبة في جولة.

ومن هنا، فإن تعذيب المعتقلين السّياسيين والذين يخضعون له بشكلٍ ممنهج ليست ببعيدةٍ عن التّخمين.

Twitter: @alqareah

ولكن، ماذا عن عامّة النّاس؟.. من سيذكر هؤلاء؟..

كم منهم بين جريح ومعذّب!..

زميلي في كليّة الحقوق الذي كاد أن يفقد بصره في استجواب، أو كذاك اللّصّ الصّغير في "غارابانتشيل" الذي سيقضي عمره مع النّدبات على وجهه من جرّاء صفعات الضّابط المدريديّ وخاتمه الشهير.

يوزّع الشّهداء على أيدي رجالِ عيونهم مطاطيّة، قلوبهم حديدية وأيديهم مصنوعةٌ من الخردة.

يا لنشّالي إسبانيا المساكين!..

جوّ النّفاق هذا الذي يحكم سجوننا بشكلٍ مؤسّساتيّ.

معتقلاتٌ يُديرها ويحرثها ثلثٌ من السّجناء أنفسهم، ولهذا اسمٌ واحدٌ: (أقدارٌ محتومةٌ بالخيانة).

مهمتهم، مُخبرون وحرّاس ومعذّبون للمساجين: زملاؤهم.

وبالطّبع فإنّه إلى هذه " الأقدار" تُوكَل مهام الاعتناء بزنازين العقاب، وغالباً ما يُقتلُ هؤلاء الرّجال بوحشيةٍ ساديّة وهم محتجزون كالجرذان لأيام وأسابيع

Twitter: @alqareah

وشهور بين الجدران الأربعة.

أمّا "الأقدار" الأشدّ قسوة، فهم من يتكفّل بإبراح الّذين يحاولون الهرب بالضّرب والتّشويه.

عرفت العديد من السّجناء، ممّن قضوا سنين في أقبية السّجون، دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة أو حتّى التّدخين، لا يستقبلون الزّوار ولا يُكلّمون أحداً.

طوال شهور طويلة، تدور حياة هؤلاء المدفونون وهم أحياء حول الهمس والوتوتة، دون ليلٍ أو نهار، في الظّلمة على أمل التّحدّث إلى صرصار قد يظهر.

يخرج هؤلاء الرّجال من زنزاناتهم نصف عميان ونصف مجانين.

ينتهي العقاب، فلا ينخرطون مجدّداً بحياةٍ طبيعية إلا بعد جلساتٍ تُعلّمهم مجدّداً استرجاع بصرهم وتوازنهم العقليّ.

وأنا هنا أُحدّثك عمّا يجري في هذه اللّحظة في جميع سجون إسبانيا.

ما من سبيلٍ في وسط الصّمت المطبق والتّوسّل!..

ما أكثر الأوجاع المحشورة في معتقلات إسبانيا.

Twitter: @alqareah

أنا أرتجف من مجرّد الحديث عن هذه السّجون.

لدى خروجي من السّجن كتبت رسالةً في صحيفة لوموند الباريسيّة، لكنّ أحداً لم يتمكّن من نشرها في إسبانيا.

ويُحرجني الصّمت عن بعض الحالات:

كعامل البناء الكادح ذي الثّلاثين عاماً، الّذي حُكِم في 1966 بثلاث عشرة سنة من السّجن بسبب التّأسيس والتّرويج لشركةٍ غير قانونية، آخرٌ من رفاقه وبالجرم ذاته حُكِمَ بخمس عشرة سنة.

مصارعُ الثّيران الشّاب، الّذي حُكِمَ بستة أعوام من السّجن بتهمة "الإساءة للأمّة " لأنّه، بعد حادث سير، قال وهو غاضب: "جميع الإسبان أوغاد".

عامِلٌ آخر أمضى عشرين سنةً في السّجن لأنّه كان قد حاول في عام 1947 تأسيس نقابة.

طالبٌ تقدميّ حُكِم لثلاثة أعوام بسبب حيازته على نُسخٍ من مجلّةٍ يسارية.

مثقّفٌ مدريديّ حُكِم باثنتي عشرة سنةٍ لأنّه كتب مقالتين في صحيفةٍ أجنبيّة.

Twitter: @alqareah

والقائمة أيضاً ... تطول.

وفي نهاية الرّسالة كتبت: أنا لا أنتمي لشيءٍ ولا لأحد. أريد فقط أن تعمّ الحريّة وألا يطال الظّلم الآخرين.

أتمنّى لو كان بمقدوري الاعتقاد بأن ما طرحته كان كذباً، بأنني أخطأت أو أن ما شاهدته وعشته في إسبانيا هذا الصّيف كان كابوساً.

ووددت أن لا أكون على صواب .

كان لديّ أملٌ ضئيل بأن يُثبت أحدٌ لي، وبالدلائل أن عيوني وآذاني كانت قد خدعتني.

وعندما عرفت أن سفارة إسبانيا كتبت لي رداً، راودني شعورٌ بالرضا.

والخيبة كانت عندما قرأتُ النّص الذي كتبه ذلك المستشار الكسول مُوضِحاً للقرّاء أن ما ذُكِر عن مسؤول المعلومات حول علاقته باعتقالي كان عارياً عن الصّحّة.

- ولكن، حول اتّهاماتي الأخرى، لم يذكر شيئاً.

فإذاً: كانت جميعها صحيحة.

***

Twitter: @alqareah

رسالتي للصحيفة الباريسية كانت دقيقة.

كان باستطاعتي أيضاً، إضافة حالة الشّاعر الإسباني ذي السبع عشرة سنة الّذي اعتقل وحُكِم بأربع عشرة سنةٍ من حياته.

وبعد خروجه من المُعتقل أُصيب بصره بنوباتٍ من جرّاء تعوّده النّظر إلى جدران الزنزانة الأربعة عوضاً عن النّظر إلى الأفق.

كان على الشّاعر الفتى أن ينتظر حتى الواحدة والأربعين من عمره ليُحبّ فتاةً للمرّة الأولى.

لقد دفن معتقلوه قلبه وذكورته بالطين، خلال سنين طويلة.

قل لي ماذا كان هذا الصّبيّ ليقترف؟..

جريمته فقط: أنّه أبدى رأيه.

وأنّه أحبّ إسبانيا مختلفة.

رجلٌ كالكثيرين غيره.

أمضى شبابه في السّجن.

أمّا العامل "ميلكيسيديث رودريغيز تشاو" فقد كتب شهادةً مليئةً بالأمل، لم يلوّح قط من خلالها بالانتقام،

Twitter: @alqareah

وهو ـ بالمناسبة ـ كتابٌ أنصحك بقراءته أيّها الرئيس.

عنوان هذا الكتاب صرخةٌ بحدّ ذاتها: "أربعٌ وعشرون سنةً في السّجن"

كان في العشرين لدى اعتقاله.

يقول مثلاً في الكتاب:

"معتقل بورغوس أسطوريّ، ففيه ارتكبت جرائم مروّعة. وحتّى الآن يمكن ملاحظة البقع على جدران الردهة حيث كانوا يُطلقون النّار على معارضي فرانكو، آلاف الرّجال قُتلوا في هذا السّجن، أو خرجوا منه على طريق الموت... لا يُمكن إحصاء من استشهد هناك. "

***

دعني أقصّ لك شيئاً حزيناً: لم تنتزع إسبانيا منّي الصّحة ووالدي ولغتي فحسب، بل إنها أيضاً تحرمني من أصدقائي.

كم منهم أقلع عن رؤيتي أو الكتابة لي بعد

Twitter: @alqareah

الحمـلات العديـدة ضـدّي، لـئلاً يتـسببون بالمتاعـب لأنفسهم.

من كان ليؤذيهم؟.. نظامك هو المُذنب.

الكثير منهم يكتبون لي أحياناً كلاماً نابعاً من القلب.

استلمت لتوّي رسالةً من رجلٍ إسبانيّ لا أعرفه، يقول لي فيها أن والده ربما كان مع والدي في المعتقل.

يقول فيها:

"ثمة فرقٌ بين قصّتي وقصّتك. والدي أُعدِم دون أي إجراءٍ أو محاكمة، لكنّهم منّوا عليه بإخباره - ليصفّي أموره مع الله - هنا أُخبّئ رسالة وداعه والّتي وصلتنا بشكلٍ غير شرعيّ. توفّيت والدتي منهكة بعد أشهرٍ قليلة وبعد أن خسرت ثلاثين كيلو غراماً. وكان من تواضعنا أننا لم نتكلّم مطلقاً عن الأب، ولطالما كانت مشاعري مشوّهةً حيال ذلك. أشعر كأنني كنت من قتله وأخفى جثمانه. أشعر أنني قاتلٌ سفّاح يحمل كرةً من فولاذ".

كم منّا يحمل هذه الكرة الفولاذية؟..

Twitter: @alqareah

سائر البلاد مرغمةٌ على الصّمت عمّا يصرخ في روحها.

الجّميع هم أعداءٌ لنظامك، يهدّدون أمن حُكمك: ابتداءً من عملٍ مسرحيٍّ بسيط وصولاً إلى اجتماع ثلاثة عمّال، مروراً بالكتيّبات وبالأعلام.

هل هذا ممكن؟..

أنت منهمكٌ في إرهابك، قابعٌ في قصرك، تعيش - أنت - كابوس إسبانيا السّوداء ثم تفرضه على باقي الإسبان.

فهل من أحدٍ يرغب بإسبانيا هذه؟..

هل أنا من يُغفِلُ الدّوافع؟..

هل من مبرّراتٍ عُليا؟..

كثيرون هم الإسبان الّذين شأنهم شأني، ننتظر شرحاً، علّنا نفهم.

وفي نفس الوقت، نحن مقتنعون أن لا فهم قد يَفي.

لقد حانت السّاعة التي نُعطى فيها نحن الإسبان إمكانية اختيار نظام الحُكم والإدارة للبلاد، كما نريد.

Twitter: @alqareah

فإن على إسبانيا احتواء الجميع وإنهاء تعصّبٍ بدأ منذ قرونٍ طويلة.

خذ مثالاً صغيراً: لقد رفضت سفارتنا في باريس تسجيل ابنتي لدى ولادتها.

لم يكن لي الحق بأن أكون والدها لأننا أنا وأمّها لم نتزوّج وفق عقيدة رجال دينك.

بعد خمس عشرة سنة من الزّواج، أنا أعزبٌ بالنسبة لحكومتك، وابنتي غير شرعية.

متى ستنتهي إسبانيتك من وضع الغلال على الزّهور؟..

ما أكثر الحقد!..

لا أريد، ولا نريد أن نعرف شيئاً عن إسبانيا هذه التي أنت وريثها وممثّلها.

تلك التي كان ملوكها يُحتضرون وهم محاطون بالبلهاء، يلتحفون نوارس أو طيوراً قد قطعت أعناقها.

حيث القصور والبلاطات تتشرّف منذ قرون بحياةٍ بين أقزامٍ ومسوخ، وبين حمقى ومتملّقين: "رجالُك".

لتظلُم الشّعب أكثر.

Twitter: @alqareah

بلاطاتٌ حيث في كلّ صباح، يصعد فيلٌ على السّلم الرّفيع إلى الطّابق الثّالث ليُرافق إبن "فيليب الثّاني" في تناول الفطور.

في الوقت الّذي يُقيم فيه الشّعب احتفالاً غريزياً سرياً لدفن السّردين:

الرّجال بثياب النّساء، النّساء بثياب الرّجال، أطفالٌ يتنكّرون كالمسنّين، وعجائز كأنّهم قططٌ مفعمةٌ بالشهوة.

جميعهم يحلفون بإنهاء السّطوة الدّينية وأعرافها في وسط الاحتفال المجنون.

كان رجال الدّين يفرضون التّعصّب والتّعذيب والكراهية والدّم تماماً كيومنا هذا.

فقط في إسبانيا سجونٌ مثل "غارابانتشيل" أو محرقة "إشبيلية" و"توركيمادا" أو حتّى اغتيال "غريماو"[36] ... لم يعفُ عليها الزّمان.

هذه هي إسبانيا العفنة التي ترزح تحت حُكمك.

هذه التي شعارها "ليحيا الموت".

---

36) خوليان غريماو: سياسي إسباني 1911-1963.

Twitter: @alqareah

ينتابني الرّعب لمجرّد التّفكير أنّك تنام في كلّ ليلةٍ إلى جانب ذراع (سانتا تيريزا دي آفيلا) الطّاهرة، تلك الامرأة العظيمة التي لطالما كافحت فساد الكنيسة، والتي كان أتباعك ليجعلوها في عداد الشّهداء اليوم لو كانت بيننا.

***

سأنسخ لك رسالة رجلٍ محكومٍ بالإعدام من قِبَل نظامك والتي كانت أفكاره "التخريبيّة" لا تتعدّى أعمالاً خيريّة وبعض الإحسان.

لم تقتله "عدالتك" فحسب، بل منعته أيضاً من الحديث إلى زوجته وأبنائه قبل هذا الموت.

هذه الرّسالة العفويّة والبريئة كانت مثاليّة، وصلت إلى ذويه بشكلٍ إعجازي. وتقول:

عزيزتي فلورا، أبنائي الأعزاء:

أتمنّى أن تكونوا بخير، وأنا الآن جيّد.

Twitter: @alqareah

في هذه اللحظات يتمّ نقلي من السجن لألقى نهايتي المحزنة. وهكذا ستكون لي ولكِ ولأبنائنا الأعزّاء.

تعرفون جيّداً، كم أردت أن أكون صالحاً دائماً ومن أجل الجميع.

أودّ أن تنهوا حياتكم بحظٍّ أوفر ممّا لقيته. وأن تمارسوا المشاعر الجيّدة وألا تكترثوا للأجر السيّء.

أمّا أنا، فسوف أحافظ حتّى اللحظة الأخيرة على إحساسي بالعدالة والإنصاف الإنسانيين.

ولأبنائي أتمنّى أن يظلّوا طيّبين كما هم، كونوا كذلك، محافظين على قيمكم.

لا تفكّروا بالانتقام من أحد ولا تثأروا لموتي.

كونوا جيّدين يا أبنائي مع والدتكم، وحاولوا أن تكونوا نافعين لمجتمعكم قدر ما استطعتم.

فربّما تعيشون في مجتمع أفضل قليلاً يفيض بمشاعر إنسانيّةٍ أرقى، فساعدوا في بنائه.

نمّوا وعيكم، وقودوه دوماً لتكونوا سعداء وراضين. حتّى وإن جار الزمن عليكم، فإنّ أحداً لن يحرّف نهجكم

Twitter: @alqareah

وحسن سيرتكم.

أبنائي، سيموت والدكم خلال ساعات. إنّي أرى الموت قادماً... ولكنّي هادئ. . صدّقوني.

أحبّكم جميعاً وأرحل عنكم مرسلاً لكم قبلاتي التي تخرج من صميم قلبي.

ولك عزيزتي فلورا، عناقٌ أبدي. صورتكِ مطبوعةٌ في قلبي ولا يستطيع أحدٌ انتزاعها مني.

وتأكّدي أنه عندما يطلقون النار عليّ، سأبعث لكِ بقبلتي الأخيرة.

كوني مطمئنّةً فإنّ زوجك سيعرف كيف يموت، كما عرف كيف يعيش.

قبلة أخيرة للجميع... مع الزفير الأخير.

التوقيع : مكاريو

وعلى هامش الرسالة كتب سجينٌ زميل:

عندما نادى الجلاد مكاريو، عضّ هذا الأخير على ذراعي بقوّة...

***

Twitter: @alqareah

فإلى متى ستظلّ إسبانيا تعضُّ على ذراع الصديق

لتتعذّب بصمت؟..

دون ضغينةٍ... وبصدق.

فرناندو آرّابال

باريس 3/18 /1971

Twitter: @alqareah

الخاتمة

لن أحتفل بموت فرانكو

علّمنا حكم فرانكو الكره والعنف والموت.

لكنّ جيلنا كانت لغته الكرامة. باسمكم أعلن أنّ موت فرانكو ليس انتصاراً للشعب الإسباني، ولن يكون للحريّة. لهذا، لن أحتفل بهذا الموت.

لن أطلق الصّرخة التي سمعناها طوال أربعين سنة: "ليحيا الموت".

فرانكو الذي أهلك معظم عائلتي، وعائلات أصدقائي، استمرَّ في القتل حتى أنّه قَتَلَ عشيّة عذابه هو نفسه.

وساد الموت في انحرافاته المفضّلة: كان يقتل الأرانب والحمام وسمك التونة، وكان يرسم حطام السّفن.

Twitter: @alqareah

فلا يحدثّنني أحدٌ عن عبقريّة هذا الرّجل العسكريّة: في الأراضي الأفريقيّة، فسائر معاركه هي مصائب بالنّسبة للتّاريخ، في شبه الجزيرة الإيبيريّة، احتاجَ إلى ثلاث سنوات من الحرب ومساعدة أحدث جيوش أوروبا ليخنق شعباً مسلّحاً ببنادق الصّيد، في وجه مدفعيّته التي قصفت الحمام بقنابلها.

ولا يحدّثنّني أحدٌ عن النّجاح الاقتصادي لإسبانيا، على حساب عمّالٍ مكمومي الأفواه، حُرموا من حقّ الإضراب، مع قادتهم في السّجون.

المعجزة الإسبانيّة الوحيدة كانت عائلة فرانكو: البارحة فقيرة في بورغوس واليوم من أثرى أثرياء العالم.

لا يحدّثّنني أحدٌ عن فنّ الإدارة والحكم الذي سمح له بالمكوث طويلاً على سُدّةِ الرّئاسة، فجميع الدكتاتوريّين القابعين على أنظمةٍ قمعيّة من وحوشٍ ظالمة يمكثون في السّلطة طويلاً:

سالازار دام 44 سنة، تروخيّو 31 سنة، سوموزا 39 سنة.

لم يعلن فرانكو الحرب إلا على الحريّة والعدالة

Twitter: @alqareah

وعلى طبقة العمّال الكادحة، كما أعلن الحرب على الثّقافة والشّعر.

نظامه بدأ باغتيال غارثيا لوركا واستمرَّ في رقابةٍ دفعت الثّقافة الإسبانيّة في عمق الزجاجة حارمةً إيّاها من مراحلها الأكثر نقاوة!..

فيا لتعاستنا حين لم نستطع التعبير عن أنفسنا بالإسبانيّة، لغةٌ لنا فيها حقُّ الشجرة في الأرض!..

في حالةٍ متواضعة لم أستطع أن أقدّم لأخوتي ولأصدقائي آخر فيلم لي (شجرة غيرنيكا)[37].

والذي كان موجّهاً لهم ويحكي عيّنةً عن الحرب الأهليّة والبربريّة الفرانكويّة من وجهة نظرنا،

عندما قام الطيران النازيّ بقصف غيرنيكا لمساعدة فرانكو صمدت شجرةٌ محاطة بالرّماد واقفةً... كالأمل.

مات فرانكو..

فليحيا الأمل

فيرناندو آرّابال

(نشر في لوموند، بعد موت فرانكو)

37مدينة في الباسك في إسبانيا، وقعت فيها مجزرة عام 1937.

Twitter: @alqareah

إصدارات دار ممدوح عدوان

ـ الأعمال المسرحية الكاملة. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

ـ هواجس الشعر/ دراسة نقدية. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

ـ أعدائي/ رواية. تأليف: ممدوح عدوان. ط3 (2007).

ـ الجنوبي/ سيرة الشاعر أمل دنقل. تأليف: عبلة الرويني. ط2 (2006).

ـ تفسير الأحلام/ قصص قصيرة. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2007).

ـ جنون آخر/ مقالات. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2007).

ـ النقد الذاتي بعد الهزيمة/ دراسة. تأليف: صادق جلال العظم. ط3 (2007).

ـ تقرير إلى غريكو/ سيرة ذاتية. تأليف: نيكوس كازنتزاكيس. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2007).

ـ زوربا البرازيلي/ رواية. تأليف: جورج آمادو. ترجمة: ممدوح

Twitter: @alqareah

عدوان. ط2 (2007).

- حيونة الإنسان. تأليف: ممدوح عدوان. ط2 (2007).

- وحيدا كذئب الفرزدق (مختارات) تأليف: أمجد ناصر. ط1 (2007).

- تاريخ التعذيب/ دراسة. تأليف: بيرنهاردت ج. هرووود. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2008).

- أطياف ممدوح عدوان: شهادة الحياة وشهادة الابداع (حوارات منتخبة)/ دراسة. تأليف: أ. د محمد صابر عبيد. ط1 (2008).

- حكاية الشيخ أبي خليل القباني والوالي مدحت باشا العثماني/ مسرحية. تأليف: دلع الرحبي. ط1 (2008).

- لا غبار عليك. شعر. تأليف: لقمان ديركي. ط1 (2008).

- بنات نعش. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. (2008).

- مولانا. مسرحية. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2008).

- دفاعاً عن الجنون. مقدمات. تأليف: ممدوح عدوان. (2009).

- الأعمال الشعرية الكاملة. شعر. تأليف: د. محمد مردان. ط1 (2009).

- الإلياذة. تأليف: هوميروس. ترجمة وتعليق: ممدوح عدوان. ط1 (2009).

- التفاتة العابر في ظله. شعر. تأليف: محمد أبو لبن. ط1 (2009)

- الخارطة الشعرية في الأغنية الرحبانية. تأليف. محمد منصور. ط1 (2009)

- سلطانات الرمل. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط1 (2009)

- خطفني الديك - حكايات ليست للصغار. تأليف : أمل حويجة.

Twitter: @alqareah

ط1 (2009)

- وداد من حلب. رواية. تأليف: قحطان مهنا. ط1 (2010)
- النار والأبد. دراسة. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)
- البحر والصفصاف. مسرحية. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)
- امرأة تنظر باتجاه الماء. شعر. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)
- الجرذان الغريقة. رواية. تأليف: وائل رداد (2010).
- المتنبي في ضوء الدراما. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان (2010).
- سارة شما. أعمال فنية (2011).
- حب. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط1 (2011)
- تجربة الصين الشعبية. تأليف: سمير سعيفان. ط1 (2011)
- مسرحيات الألفية الثالثة. تأليف: مجموعة مؤلفين. ط1 (2011)
- موتى يقلقون المدينة. تأليف عمران عز الدين. (2012)
- سكران المجانين. تأليف عدنان عودة (2012)
- هُنا في الحديقة . مسرحية. تأليف: لواء يازجي (2012)
- قفزة في الهواء . شعر . تأليف ممدوح عدوان (2014).

Twitter: @alqareah

سلسلة ذاكرة المسرح السوري

1.	أبو خليل القباني	ناكر الجميل
2.	عبد الوهاب أبو السعود	وامعتصماه
3.	وصفي المالح	طريق النصر
4.	خليل هنداوي	هاروت وماروت
5.	حكمت محسن	صابر أفندي
6.	مراد السباعي	شيطان في البيت
7.	حسيب كيالي	قارعوا الأبواب
8.	سلمان قطاية	القضية والحل
9.	محمد الماغوط	العصفور الأحدب
10.	وليد مدفعي	وبعدين؟..!..
11.	وليد فاضل	إيفا
12.	وليد إخلاصي	سهرة ديمقراطية على الخشبة
13.	سعد الله ونوس	طقوس الإشارات والتحولات
14.	فرحان بلبل	الممثلون يتراشقون الحجارة
15.	علي عقلة عرسان	رضا قيصر
16.	مصطفى الحلاج	الدراويش يبحثون عن الحقيقة
17.	عبد الفتاح قلعجي	العرس الحلبي
18.	رياض عصمت	لعبة الحب والثورة
19.	ممدوح عدوان	ليل العبيد
20.	حكيم مرزوقي - عبد المنعم عمايري	حلم ليلة عيد . صدى

Twitter: @alqareah

21. زيناتي قدسية ـ موفق مسعود
22. الأب إلياس زحلاوي
23. أحمد يوسف داود
24. شوقي بغدادي
25. **الكتاب الشباب ج1**
ـ عدنان العودة
ـ عمر أبو سعدة
ـ محمد أبو لبن
ـ يم مشهدي
ـ الفارس الذهبي
26. **الكتاب الشباب ج2**
ـ هوزان عكو
ـ كفاح الخوص
ـ وائل قدور
ـ ليندا الأحمد
ـ يامن محمد

مجنون يحكي ـ الرجل الدائري
المدينة المصلوبة
الخطا التي تتحدر
تلك الليلة

خيل تايهة
ليلة
آخر العشاق
باريس في الظل
ريح

برواتة أو الحرائق
حكاية بلاد ما فيها موت
الفيروس
الملحق
قدم إلى الأمام قدم إلى الوراء

Twitter: @alqareah

Fernando Arrabal
CARTA AL GENERAL FRANCO

في عام 1972 نشر الكاتب فرناندو أرّابال رسالته في باريس على أمل أن تصل إلى الجنرال، فرانسيسكو فرانكو.

كان ألم الكاتب المسرحي شديداً على اعتقال والده، ثم اختفائه لاحقاً. أبوه الذي كان ملازماً جمهورياً خلال الحرب الأهلية ونزيلاً في سجون فرانكو في أعقابها.

كان الرد على الرسالة هي الملاحقة والنفي و لم تنشر في إسبانيا إلاّ بعد ثلاث سنوات على وفاة الديكتاتور أي في عام 1978.

فرناندو أرابال أحد أهم الكتاب المسرحيين الإسبان المعاصرين أسس مع أليخاندرو جودوروفسكي ورولاند توبور فرقة «الذعر» المسرحية، كما اشترك مع مجموعة بريتون السريالية.

إلى جانب المسرح لدى الكاتب مسيرة غنية بالأعمال الروائية والشعرية والنثرية والسينمائية و التلفزيونية.

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-9119-9-7
9 789933 911997